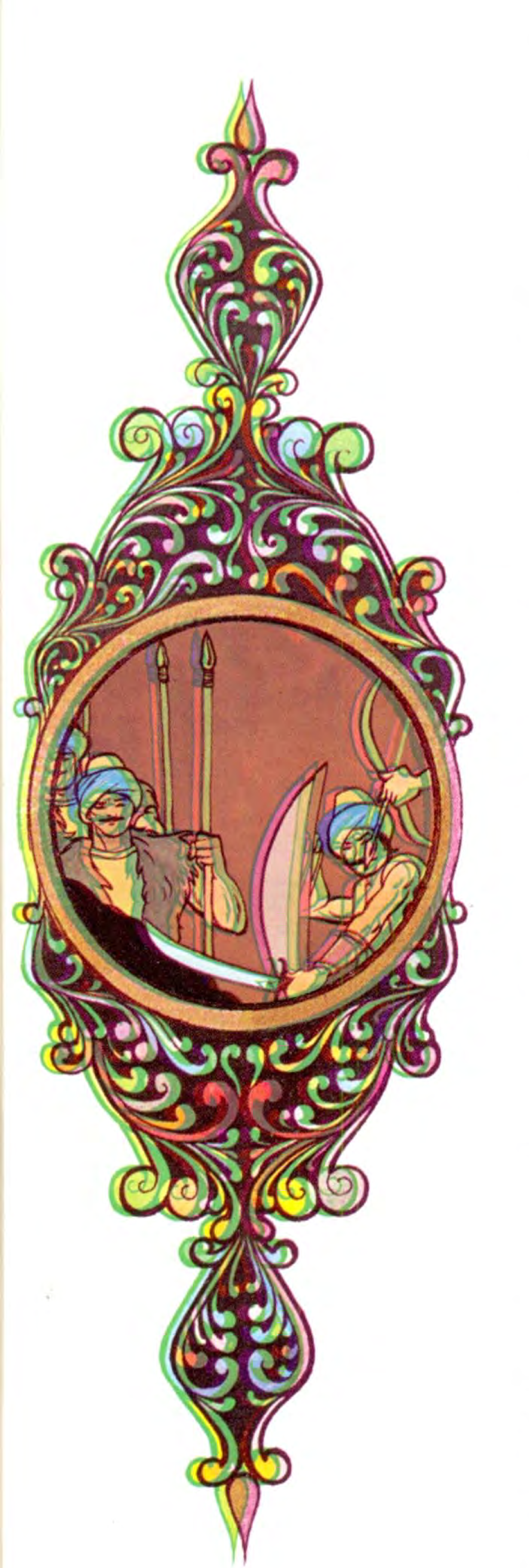


خِرْفان .. وكان بين الزبانية واحدٌ فقط ينفردُ بأنه يحملُ سيفاً . ربما كان رئيسَهم .

قال الرجلُ : هؤلاء هم الزبانية .. انظُر كيفَ يضطهدونَ أطفالَ المدينة .

فسأله الشابُ الغريب الذي ينتعل حذاءً مصنوعاً من جِلدِ دُبٍّ وربما من جلدِ حوت : وماذا يعني زبانية ؟

أجابه الرجلُ العجوز هَمْساً ـ لأن الأطفالَ وظالميهم صاروا قريبين ـ : هؤلاء الرجالُ ذوي القلوبِ القاسية والسِحَنِ البشعة ، يُفْتَرَضُ أنهم جُنود .. لكننا لا نسمّيهم جنوداً لأن مهمّةَ الجندي مهمةٌ نبيلة وسامية .. الجنديُّ صديقُ الأطفال لأنه يحمي حدودَ الوطن حتى يعيشوا سُعَداء فيه وأحراراً .. في حين حَوَّلَهم ملكُنا الظالمُ دليوان إلى مُعَذّبي أطفالٍ كما ترى .

سأله الشاب الغريب : (بصوتٍ عادي) :

ـ وهؤلاء الزبانيةُ البشعون .. إلى أينَ يسوقونَ أطفالَ المدينة ؟

أجابه الرجلُ العجوز همساً ، وقد وضعَ كفَّهُ أمامَ فمِه حتى لا يراهُ الزبانيةُ وهو يتكلّم :

ـ يسوقونهم إلى مصنعِ الدِلاء .. فملكُ مدينتِنا الظالمُ يُجْبِرُهم على أن يعملوا في مصنعِه سُخْرةً ، أي دون أجر . مع أنهم أطفالٌ صغار كما ترى .. ثم يُجْبِرُنا نحنُ الكبارَ على أن نشتري دِلاءَه .. والوَيْلُ لمن ينقلُ الماءَ من النهر إلى بيتِه بجَرَّةٍ فخّاريّةٍ مثلاً ، أو قِرْبةٍ من جلد الماعز .. فالزبانيةُ يجلدونه بالسياطِ مائةَ جَلْدَة .. وقد حطّموا كلَّ جِرارِ المدينة وبَقَروا كلَّ القِرَب ..

كانَ الأطفالُ قد وصلوا إلى مكانِ شجرةِ التوت التي في وسط السوق . وكانوا غاضبين صامدين ، وكانوا ينظرون إلى الزبانيةِ المخيفين نظَراتِ احتقارٍ وازدراء .. وهتفَ واحدٌ منهم بأَعلى صوتِه : يَسْقُط دليوان الظالم .

فضَربه أحدُ الزبانيةِ بالسَوْطِ ضربةً موجعةً جـداً .. إذ جـاءَ ذَنَبُ السَوْطِ اللاذع على أنفِه .. آنذاكَ فوجِىءَ الجميعُ إذ رأوا ذلكَ الشابَ الغريبَ يهجمُ على الزبانيةِ ويُمْسِكُ بذلك المجرمِ صاحبِ السَوْطِ ويرفعُه بيديهِ إلى الأعلى ثم يُلَوِّحُ به في الهواء ، كأنه دُمْيَةٌ خفيفة من القش .. ثم أنه قذفَ به إلى الأعلى حتى سقطَ فوق سطحِ دكـانِ الحَدّاد . (لو أن الحدادَ موجودٌ الآن لفرحَ كثيراً) ..

صفّقَ الأطفالُ وهتفوا بفرحٍ عظيم : يحيا البطل .. يحيا البطل ..

غير أن بقيةَ الزبانيةِ ـ وكانوا حوالي عشرة ـ هجموا على الشابِ الغريب الذي ، بدلاً من أن يهربَ ، أمسكَ باثنين منهم فضربَهما كما لو أنه يقرعُ بطيخةَ ببطيخة .. ممّا أضحكَ الأطفالَ كثيراً وأدخلَ السرورَ إلى قلوبهم .. أما ما تبقّى من الزبانية فقد وَلّـوا هـاربين مَذعورين ، حتى أن سياطَهم سقطَت منهم . بل إن واحداً منهم تركَ حذاءَه وهربَ حافياً . وكان رئيسُهم (صاحبُ السيف) أسرعَهم في العَدْوِ (أي الركض) ..

تَجمَّعَ الأطفالُ الفَرِحونَ حولَ الشاب الغريب وسألوه : مَنْ أنت ؟

فأجابهم : « أنا .. أنا ! »

قالوا : مثلاً .. ما هو اسمُك ؟

قال : ماذا يعني اسمي ؟



فقالَ أحدُ الأطفال : يعني .. مثلاً .. عندما يولَدُ الإنسانُ فإنّ أمَّهُ تُعطيهِ اسماً .. أليس لك أُمّ ؟

أجاب : طبعاً لي أُمّ .. تعالوا نذهب إليها لنسألَها عن اسمي .. إنها تنتظرُني هناكَ خارجَ سُورِ المدينة .. فربّما كانت تحتفظُ باسمي معَها وقد نَسِيَتْ أن تعطيني إياه .

فقالَ الرجلُ العجوز ، وقد نهضَ مُتّكِئاً على عُكّازِه : أنا ذاهبٌ معكم .

غيرَ أنهم لم يذهبوا . لأن مئاتٍ من زبانيةِ الملك داهَموا السوقَ من كلِ اتجاه .. كانوا يحملونَ سُيوفاً ورِماحاً وخناجر .. وكانوا مُقبلين بهجومٍ ساحق .. غيرَ أن صاحبَنا الشابَ لم يَخَفْ ولم يضطـرب .. وإنما أحاطَ ساقَ شجرةِ التوت الضخمة بيديه ، وشدَّ عليها ، فاقتلعها كاملةً وتَصدّى بها للمهاجمين . يُحَرِّكُها ذاتَ اليمين فيفتِكُ بعشرةِ زبانية .. ويحرّكُها ذاتَ اليسار فيفتكُ بعشرين .. ثمّ رفعَ الشجرةَ الضخمةَ في الهواءِ عاليا وقذفَ بها عليهم فقتلَ منهم الكثيرين ، ومَنْ نجا من الموت منهم هربَ بسرعةٍ وهو غيرُ مُصَدِّقٍ ما رآه .

والأطفالُ فرحوا كثيراً وضحكوا وصفّقوا وراحوا يطيرونَ في الهواء من شدّةِ الفرح .. والرجلُ العجوزُ حاولَ أن يصنعَ مثلَهم ، للتعبيرِ عن فرحته ، لكنه كان يسعُلُ .. ثم قال للأطفال :

ـ لا شكَّ أنَّ هذا الشابَ الغريب جِنّيّ .. فأعمالُه الخارقةُ التي رأيناها الآن لا يقوم بها إلا واحدٌ من عفاريتِ الجِنّ ..

فقالَ الشابُ : وماذا يعني عفاريت ؟ .. وماذا يعني جِنّ ؟

فأجابَه أحدُ الأطفال : لا تُشْغِلُ بالَكَ بهذه الخُرافات .. فحكايةُ



الجِنِّ خُرافةٌ اخترعَها الكبارُ ليَضحكوا بها على عُقولِنا نحن الصغار .. إنها للتسلية فقط .

قالَ الرجلُ العجوز مُؤَكِّداً : أنا أُصِرُّ على أنَّ هذا المخلوقَ العجيبَ جِنّي .

فأجابَه الطفل : يا عمّ .. كيف نسيتَ أنه أخبرَنا الآن عن أُمِه ؟ .. عُمْرَكَ سمعتَ بجنّيٍ له أُم ؟ ..

قالَ الرجلُ العجوز : أنا لا أُصَدِّقُ حتى أرى .. إن كانَ هذا الشابُ إنسيّاً فِعْلاً فلنذهب معه حتى نرى أُمه ونسأَلَها عن اسمِه ، ونعرفَ سِرَّ قُوَّتِه العجيبة .

وهكذا سارَ الأطفالُ والرجلُ العجوزُ مع صديقِهم . وعندما صاروا خارجَ سُورِ المدينة توجَّهوا معه إلى المكان الذي تركَ فيه أُمَّه . لكنّهم لم يَـرَوْا هناك أيةَ امرأة ، وإنما وجدوا دُبّاً كبيراً مقتولاً .. وكم كانت مفاجأتهم أكبر عندما وجدوا صاحبَهم يحتضِنُ جُثَّةَ ذلك الدُّبِّ القتيلِ بحنانٍ ويبكي بكـاءً مُرّاً ، والدموعُ تنهمِرُ من عينيه ..

ـ لماذا تبكي أيُها الشابُ الباسل ؟

قال : هذه أُمّي ....

ومنذ ذلك اليوم صارَ اسمُه : ابنَ الدُّبّ .







لم يُصَدِّقْ أحدٌ من أهالي دلوستان حكايةَ ابنِ الدُب .

كانَ الآباءُ والأُمّهاتُ يطلبونَ من أطفالِهم أن يُعيدوا عليهم سَرْدَ ما حدث ، وكانَ الأطفالُ يروون القصةَ مائة مرة ، والكبارُ لا يصدّقون .

كانوا يقولون : هذا شيءٌ غيرُ معقول ..

وعندما اجتمعوا في ساحةِ السوق ، قارنوا رواياتِ الأطفالِ مع بعضِها ، فوجدوها متطابقةً تماماً .. ومع ذلك فإنهم قالوا : هذا شيءٌ غيرُ معقول . (مساكين هؤلاء الكبار .. يظنّون أنَّ الأعمالَ العظيمةَ لا يقومُ بها إلا الجنّ) ..

وقال واحدٌ منهم (من الكبار طبعاً) : لو اجتَمَعَتْ عشرةُ أفيالٍ معاً ، وشدَّتْ شجرة التوتِ شَدَّةً واحدة ، فإنها تعجزُ عن اقتلاعِها .. فكيفَ نُصَدِّقُ ما يقولُه هؤلاء الأطفالُ مِنْ أنَّ ابنَ الدُبِ اقتلعَها وحدَه ؟

فقال أحدُ الأطفال : بل إنه اقتلعَها كما لو أنه يشلعُ خَسَّةً من أرضٍ هَشَّة ..

وقالتِ امرأةٌ كانت تُطِلُّ من نافذةِ بيتِها : على كلِّ حالٍ ها هي الشجرةُ الضخمةُ جُثَّةً هامدةً أمامَ أنظارِكم . فإنْ لم يكن ابنُ الدُبِ قد اقتلعَها فمَنْ تظنّونه فعلَ ذلك ؟

وقالت امرأةٌ ثانية : في ذلك الوقت لم يكن في المدينةِ من الرجال إلا بائعُ أقفاصِ العصافير .. وهو كما تعلمون عجوزٌ ضعيف إلى حد أنه لا يكاد يستطيعُ حَمْلَ عُكّازِه .. فهل تظنّونَ أنه هو الذي اقتلعَ هذه الشجرةَ الضخمة ؟ .. لا .. لا .. هذا شيءٌ من عَمَلِ الجنّ حتماً .

آنذاك قال الحَدّادُ وهو واقفٌ أمام بابَ دُكّانه : سواءٌ كان ابنُ

الدُبِ إنسيّاً أم جنّياً فإنني سوفَ أصنعُ أحسنَ سيفٍ في الدنيا لأُقدِّمَهُ هديّةً إليه حين أراه .

ثم نادى الحَدادُ على صُنّاعِهِ الواقفينَ مع الناس المحتشدين : « هيّا إلى العمل يا أولاد .. أشْعِلوا نارَ الكُورِ ولنبدأْ بصُنْعِ السيفِ لابنِ الدب » ..

واشتعلتِ النارُ في كورِ الحَداد .. ودارَ دولابُ العمل ..
والخَبّازُ أوقَدَ نارَ فرنِه ليصنعَ الفطائرَ اللذيذة ..

والخَزّافُ أدارَ دولابَه الخشبيَّ الذي يصنعُ عليه الجِرارَ والأباريق الفخارية الجميلة . (كان الدولابُ يُصْدِرُ صَريراً يشبهُ صوت الأنين لأنه كانَ متوقّفاً منذ مدّةٍ طويلة) ..

ودَبَّ النشاطُ والحركةُ في المدينة التي امتلأت بالكبار والصغار والأمهات والقطط والضحكات ، والأزهار أيضاً .. لأن الأطفال ـ بعد أن تَحَقَّقَ هذا الانتصارُ الرائع ـ قالوا للكبار : بدلاً من أن تحطّموا الدِلاءَ اجعلوها أُصُصاً لزراعةِ الأزهار الجميلة . (لو أن الكبارَ يطيعونَ الأطفال في كلِ شيء لصارتِ الدنيا جميلةً إلى حَدٍّ لا يصدّقُه العقلُ) ..

فقال الفَرّاءُ ـ الذي يصنعُ قِرَباً للماءِ من جُلودِ الماعز ـ : لكننا نريدُ أن ننتقمَ من الملكِ الظالمِ دليوان ..

فأجابه أحدُ الأطفال : بدلاً من أن تنتقموا منه بتحطيمِ هذه الدِلاءِ التي تَعِبْنا بصُنعِها نحنُ ودفعتم ثمَنَها أنتم .. ها هو الملكُ دليوان قاعدٌ في قصرِه العالي .. اذهبوا إليه فانتقموا منه .

يا ليتَ أهالي دلوستان نَفَّذوا هذه النصيحة ..

لكنهم خافوا .. كأنهم عندما سمعوا اسمَ الملكِ الظالمِ تذكّروا كلَّ المآسي التي أنزلَها بهم خلال العشرين سنة الماضية .. فسكتوا .. ودَبَّ





الذُعر في قلوبِهم .. وتذكروا أيضاً خاتَم الجوهرة السحرية الذي في أصبعِ المِلك .

فأصابعُ الملكِ دليوان مليئة بالخواتم الثمينة .. لكنَّ هذا الخاتَمَ بالذات هو المُخيف بينها جميعاً . لأنه خاتمٌ سحريّ وقد سمعَ أهلُ المدينةِ جميعاً بأن الملكَ حين يفركُ جوهرةَ هذا الخاتَمِ السحري يأتيه العفريتُ الأزرق ، الذي رأسُه في الغيومِ وقَدَماه في البحر ، ويقفُ ذليلاً طائعاً بين يَدَيْه وهو يقول : « شُبّيك لُبّيك عَبْدُكَ بين يديك » .. فيأمُره الملكُ دليوان هكذا : « حَطِّمْ لي جيشَ الأعداء بضربةٍ واحدة » .. فلا يلبثُ الناسُ أن يسمعوا ــ بعد أيام ــ أن جيشَ الأعداء قد تحطّم ، وتَصْدُرُ الأوامرُ الملكية بأن تُقيمَ دلوستان أعظمَ الاحتفالات ابتهاجاً بذلك الانتصارِ العظيم .. وينزلُ الزبانيةُ إلى البيوت وهم يُلَوِّحون بالسِّياطِ ويأمرونَ الناسَ بنَصْبِ الزيناتِ وتعليق الدِلاءِ على الأبواب والنوافذ .. ومَنْ يشتري من مصنعِ الملكِ دِلاءً أكثر في ذلك اليوم فهو المواطن الأحسن .. لأنه يزيدُ في ثروةِ الملكِ أكثر ..

كلُ هذا والناسُ لا يعرفون أينَ وقعَتْ تلكَ المعركةُ الحربيةُ التي انتصرنا فيها .. ولا شكلَ الجيشِ المُعادي الذي انتصرنا عليه .. ولا أحد يجرؤ على أن يسألَ عن ذلك . لأنه لو سألَ لَسَمِعَ جواباً من الزبانيةِ بهذه الصيغةِ التي حفظَها الناسُ لأنها ظلّت تتكرّرُ بذاتِها طوالَ عشرينَ سنة .

ــ هذا بَدَلاً من أن تشكروا الملكَ دليوان لأنه أغناكم عن مَشَقَّةِ القتال ، وحقَّقَ لكم كلَّ هذه الانتصارات دون أن تحاربوا ؟ .. يا أهلَ دلوستان أشكُروا اللهَ على أنْ رزقَكم هذا الملكَ العظيم الذي يستطيعُ بفَرْكَةٍ واحدةٍ مِنْ خاتَمهِ السحري أن يفعلَ المعجزات ..

أمّا الآن ، بعد معركةِ الزبانية مع ابنِ الدُب ، فإن الناسَ يُريدونَ



أن يسألوا : « أينَ ذهبَتْ قوّةُ الخاتمِ السحري ؟ » .

لكنْ على مَنْ يطرحونَ ذلك السؤال ؟

فالزبانيةُ اختفوا من المدينة .. وتجمّعوا هناك في القصرِ الملكي العالي ، بعد أن أَحكموا إقفالَ أبوابِ السورِ الحَصين .. وقعدوا مع الملكِ دليوان الذي انتابَتْهُ حالةٌ نفسيَّةٌ عجيبة منذُ أن سمعَ حكايةَ ابنِ الدب .. فقد صار يضحكُ طولَ الوقت ..

ألا ما أعجبَ حالاتِ الملوك ! !

فعندما رجعَ إليه زبانيتُه من معركةِ شجرةِ التوت ، هذا بفَرْدَةِ حِذاءٍ واحدة ، وهذا فَقَدَ طاسةَ رأسه النُحاسيّة ، أضحكَه منظرُهم .

ثم اشتدَّ ضحكهُ أكثر عندما لاحظَ ما هم فيه من خوف وذُعر ، هذا دماؤه تسيل على وجهه ، وهذا يعرجُ متألّماً ، وهذا يئنُّ قائلاً : « آخ يا يَدي » ..

كلُّ هذا والزبانيةُ الخائبون لم يجرؤوا على أن يسردوا حكايةَ ما جرى لهم مع ابن الدب . لأن الملكَ دليوان كان يضحك ، وليس مِنَ الأدبِ أن تُقْطَعَ عليه ضحكتُه الملكيّة السامية .

لكنّه عندما سمعَ القصةَ ـ أخيراً ـ قالَ : « لا تخافوا ولا تقلقوا أبداً .. سأجلبُ لكم ابنَ الدبِ ذليلاً طائعاً ليقفَ بين أيديكم مثلَ القطة .. وإن كان هذا الخاتمُ السحريُ لم ينفعْ معه فإنني لم أستخدمْ بعدُ هذه الجوهرةَ الحمراء » .. وأشارَ بإصبعهِ الملكيّة السامية إلى جوهرةٍ حمراءَ كبيرةٍ كانت تزيّنُ عمامَةَ جلالته .. وهي جوهرةٌ مدهشة تخرجُ منها ريشةُ طاووسٍ فتزيدُ في جَمالِها جَمالاً ..

وهذه الجوهرةُ الحمراءُ الثمينةُ تزيّنُ عمامةَ الملك دليوان منذ عشرين سنة . لكنْ لم يخطُر على بالِ أحدٍ من الزبانية ، في يومٍ من الأيام ،



أن يسأل جلالتَه عن « سِرّها » ما داموا يعتقدون أن لكل جوهـرةٍ سِرّاً ..

وها هم الآن فقط يعلمونَ من جلالته أنها جاءته هدية من ملكِ الجنّ الأحمر ، يوم تَسَلَّمَ العرشَ قبل عشرين سنة .

فقالَ الزبانيةُ لبعضِهم – حتى يُشيعوا الثقةَ بأنفسِهم – : وما أدراكَ ما ملكُ الجنِ الأحمر ! ! إنه أقوى من العفريت الأزرق وأشدُّ منه هَوْلاً بكثير .

فأثنى الملكُ على كلامِهم وأضاف : ومن أسرار هذه الجوهرة الحمراء العظيمة ، أنه إذا هربَ أحدُ رجالي من خِدمتي فإنه يُصْعَقُ في مكانِه ويموتُ في الحال .

فتلفَّتَ الزبانيةُ إلى بعضِهم مَذعورين .. مما جعلَ الملكَ دليوان يضحكُ من جديد .. فقال له أحد الزبانية : ولماذا نتركُك يا مولانا إذا كنتَ ستنتقم لنا من ابنِ الدب ؟









لكن أينَ صارَ ابنُ الدب ؟

كل الناسِ يسألونَ : أينَ ابنُ الدب ؟

الرجالُ والنساءُ في مدينة دلوستان يسألون عن ابن الدب لأنه صارَ الأملَ في خَلاصِهم من ظُلمِ الملك دليوان وزبانيته .

وأطفالُ المدينة يسألون عنه لأنه صديقُهم . وقد ندموا كثيراً ولاموا أنفسهم لأنهم تركوه وعادوا إلى بيوتهم في ذلك اليوم ، عندما وجدَ ابنُ الدب أمَّه قتيلةً وراح يبكي عليها بحزنٍ شديد ، حتى إنه لم ينتبه إلى إنصرافهم من حوله .

والحدّادُ يسألُ عنه لأنه صنعَ سيفاً عظيماً لا يقدرُ على حَمْلِه أربعةُ رجال .. ويريدُ أن يقدّمه هديةً إليه .

والبيطارُ يسألُ عن ابنِ الدبِ لأنه يتمنّى أن يهدي إليه حصاناً لا مثيلَ له .. « ولكنْ أيُّ حصانٍ يمكنُ أن يحملَ ذلكَ العملاق ؟ » . هكذا سألَ البيطارُ نفسَه ..

وأما الملكُ دليوان فقد كانَ أشدَّ الجميعِ إنشغالاً بالتساؤل عن مكانِ ابنِ الدب . فهو يخافُ أن يفاجئَهم هذا « المخلوقُ العجيب » بهجمةٍ ثانية فيدمرَ القصرَ الملكيَ فوقَ رؤوسهم . لذلك أصدرَ أوامرَه بإغلاقِ المدينة جيّداً ، وانتشارِ الزبانيةِ فوقَ أعالي السورِ حتى تظلَّ عيونُهم مُفَتَّحَةً ، ليلاً نهاراً ، للتحذير من ابن الدب عندما يأتي .

فقال له أحدُ الزبانية :

ــ يا مولانا .. إن هذه الأوامرَ تَنُمُّ عن خوفٍ شديد .. مع أنَّ جلالَتكم وَعَدْتُمونا بأنْ تجلبوا ابنَ الدبِ طائعاً ذليلاً مثلَ أرنبٍ أو قطة .

فضحكَ الملكُ دليوان ــ حسبَ العادة ــ ثم قال :

ــ أنا لستُ خائفاً من ابنِ الدُب .. ولكنني أخشى أن يسمعَ قصتَه الملكُ فريوان أو الملك بطيوان فيستميلَه إليه ويتحالفَ معه ضِدَّنا .. فأنتم تعرفون أن كُلّاً من هذين الملكين طامعٌ في احتلالِ دلوستان .. ولهذا أمرتُ بإغلاق بابِ المدينة ، حتى لا يسافرَ أحدٌ من هنا فينقلَ الحكايةَ إلى بلادِ ذَيْنِكَ العدوَّيْن الطامعَين فينا ..

ثم قال بلهجةِ أمرٍ قاسية : هَيّا اذهبوا فأغلِقوا بابَ المدينة ..

لكن الزبانيةَ لم يتحركوا من أماكنهم .. كانوا خائفين جداً .

فأشارَ الملكُ دليوان بأصبعِه إلى الجوهرةِ الحمراء التي في عمامَتِه وقال : إذَنْ سآمُرُ ملكَ الجنِ الأحمر بأن يمسخكم إلى حجارةٍ ، ويأتيني بأعوانٍ غيرِكم ..

فتحرَّكَ بعضُ الزبانية وذهبوا لإغلاق بابِ المدينة . ولكنهم كانوا يجتازونَ الشوارع بحذرٍ شديد ، وفجأةً يسمعونَ صوتَ طفلٍ يُحَذِّرُهم من خَلْفِ أحدِ الجُدرانِ قائلاً : « جاءَكم ابنُ الدبِ » فيركضون مَذعورين ، وتنفجرُ ضحكاتُ الأطفال ..

وقد حدثَ لهم هذا عدةَ مرّات ، إلى أن وصلوا إلى بابِ المدينة ، فأغلقوه وهم يرتجفون خوفاً ..

وبما أنه ليس للمدينةِ غيرُ هذا الباب ، فقد ظلَّ ابنُ الدُبِ والرجلُ العجوزُ خارجَ السور .. هناك في المكان الذي دفنا فيه الدُب ..

وكانَ الرجلُ العجوز ــ طولَ الوقت ــ يحاول أن يَسْتَرِقَ النظرَ إلى كَتِفِ ابنِ الدب .. يريدُ أن يرى ما إذا كانَ على ذلكَ الكتفِ ثلاثُ شاماتٍ بُنّيّة .. لكنه لم يستطع ذلك لأن ثيابَ ابنَ الدُبِ سميكة .

وعندما جاءَ الليلُ جلسَ الاثنان معاً أمامَ باب مغارةٍ ، يسهرانِ في



ضوءِ القمر .. وكان ابنُ الدُب ما يزالُ مُطْرِقاً حزيناً .

فسأله العجوزُ : أأنتَ متأكّدٌ من أن هذه الدبةَ هي أُمُّك ؟

فأجابه : منذ وعيتُ على الدنيا لا أعرفُ أُمّاً غيرَها .. فهي التي تحبُّني وتَرعاني طولَ الوقت .. ولم تفارقْني لحظةً طولَ حياتي ..

آنذاكَ شعرَ الرجلُ العجوزُ بأنه سينفجرُ إذا لم يَبُحْ بالسِرِّ الذي أثقلَ عليه صدرَه .. ولكنْ كيفَ يبوحُ بذلك السِرِّ الخطير ؟ ..

فكَّرَ ساعةً ثم قال :

ـ إسمعْ أيها الشابُ الغريب .. سأحكي لك قصةً عجيبةً غريبة ، لكنها قصةٌ واقعية حدثَتْ فِعلاً ، لأنني شهدتُ أحداثَها بنفسي .. فإن أعجبَتْكَ القصةُ فإن لي عندَكَ طلباً بسيطاً .

ـ ما هو هذا الطلب ؟

ـ أن تَكشفَ كُمَّ يدِكَ اليمنى حتى الكتف .. أريدُ أن أرى كتفَكَ الأيمن .

ضحكَ ابنُ الدُبِ لهذا الطلبِ الغريب ، رغمَ أنه حزين ، وقال للرجلِ العجوز :

ـ إنني موافق .. هاتِ أَسْمِعْني قصتَكَ المُدْهِشَة ..

فقالَ الرجلُ العجوزُ : إعْلَمْ أيها الشابُ أنني قبلَ عشرينَ سنة لم أكنْ بائعَ أقفاصِ عصافير .. وإنما كنتُ من أشهرِ الناسِ بالعِراكِ والمصارعة .. فجاءَني ذاتَ يومٍ هذا الإنسان الغَدّار ، الذي سَمَّى نفسَهُ « دليوان » بعد ذلك ، وأغراني بأن يملأَ جيبي بالذهب إذا ساعدتُه في « عَمَلِيَّةٍ مُعَيَّنَة » حسب تعبيره .

سألتُه : وما هي هذه العمليةُ المعيّنة ؟



قال : تأتيني في المساء وتعرفُ كُلَّ شيء ..

وأعطاني عشرةَ دنانير ذهبية ومضى ، بعد أن حَدَّدَ لي المكانَ الذي سنلتقي فيه مساءَ ذلك اليوم .

نظرتُ إلى الدنانيرِ الذهبية في راحةِ كفّي فغمرَني فرحٌ لا يوصف . فهذه أولُ مرّةٍ أرى فيها الدنانير الذهبية ، لأنني كنتُ أعيشُ من صَيْدِ السّمك ، وحظّي في الصيدِ كان سيّئاً آنذاك .

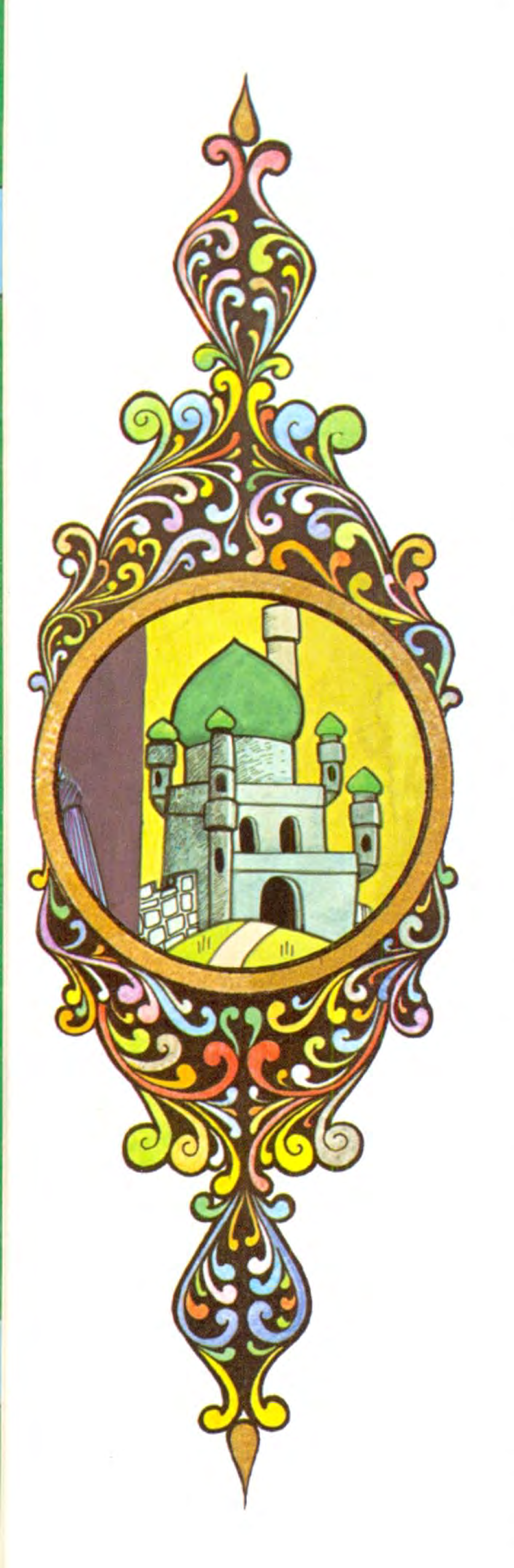
غير أنني سألتُ نفسي : ما هي تلكَ العمليةُ العجيبة التي دفعَ لي ذلك التاجرُ هـذه السُلْفَةَ المُغْـريَةِ من أجْلِها ؟ .. ولمـاذا لم يُخْبِرْني بتفاصيلِها ؟

ثم قلتُ لنفسي : رُبّما كانَ هذا التاجرُ الغنيُّ يريدُ أنْ يقدّمَ للملكِ المحبوبِ مُفاجأةً طريفةً في مساءِ ذلك اليوم ، كأنْ يقدّمَ مثلاً فرقةَ مُصارعين ضِمْنَ مهرجانِ عيدِ الفرح الكبير .. وكلُّ مَنْ في المدينةِ كانَ في ذلك اليوم يستعدُّ للمُشاركةِ في الاحتفالات .

قاطَعَهُ ابنُ الدبِ مُتَسائلاً : أيَّةُ مدينةٍ وأيُّ ملكٍ محبوب ؟

قالَ الرجلُ العجوز ، وهو يُشيرُ بيدِه إلى مدينةِ دلوستان التي تتلامعُ بعضُ أضوائها خافتةً من بعيد : هذه المدينةُ نفسُها .. ولكنْ ، في ذلك الزّمن ، كانَ اسمُها عِلْمِسْتان .. نسبةً إلى العلوم .. فقد كانت يومَذاك مدينةً مشهورةً بالمدارس والعلوم والفنون .. وكان أهلُها من أسعدِ الناس . وكانَ ملكُها رجلاً فاضلاً ومحبوباً جداً ، لأنه لا هَمَّ له إلا أن ينشرَ العدلَ ويُشيعَ الثقافةَ بين الناس ، ويجعلَ كلَّ ما في المدينة جميلاً ، لذلك كانَ الناسُ يحبّونه كثيراً ، والأطفال خاصةً ، لأنه أنشأ لهم حدائقَ وملاعبَ ومسابح ، ولأنه في كلِ فترةٍ يبتكرُ لهم مهرجاناً جديداً أجملَ من المهرجانِ السابق .





في ذلك اليومِ كان أهلُ المدينةِ يستعدّون لاحتفالاتِ عيدِ الفرح الكبير ، الذي سيُقامُ في المساء ، على أنوار المصابيح والمشاعل ..

وهذا العيدُ لم يكنْ موجوداً من قبل . لكنَّ أهلَ المدينة قالوا : ما دامَ ملكُنا المحبوبُ يحبُّ أن يرانا فَرِحين ، فلماذا نُكَلِّفُه أن يُقيمَ هو المهرجانات الجميلةَ لإسعادِنا ؟ . لماذا لا نُسْعِدُه نحنُ فنقيمُ له احتفالاتٍ ضخمةً ومُدهشةً في يومٍ مُحَدَّدٍ نسمّيه يومَ عيدِ الفرح الكبير ؟

وهكذا نقلَ أهلُ المدينة رغبتَهم إلى الملك عُلَيْمان ، وهذا اسمُهُ .. وكان الناسُ قد سمّوه « عَلْمان » لشدّةِ شَغَفِه بالعلومِ واهتمامِه بقراءةِ الكُتب ، ولكنه فَضَّلَ صيغةَ التّصغير « عُلَيْمان » لشدّةِ تواضُعِه ، وقال : إنني لا أستحق لقبَ « عالِم » ، لأنني أشعرُ بأنني كلّما قرأتُ المزيدَ من الكُتُبِ تَبَيَّنَ لي أنَّ هناكَ مَعلوماتٍ ومعارفَ أخرى ينبغي عليَّ دراستُها .. فالإنسان ـ أيها الشعبُ العزيز ـ يظلُّ طولَ عُمرِهِ بحاجةٍ إلى المَزيدِ من العلمِ والمعرفة ..

وشكَرهم على مُبادَرَتِهم الجميلة بإقامة عيدٍ للفرح ، وعَبَّرَ لهم عن سعادتِه وسرورِه بأنْ يُشاهِدَ في المساء المفاجآتِ المدهشةَ التي أَعَدّوها للمهرجانِ الليلي الكبير ..

وحين طلبَ منهم أن يُخبروه عمّا أعدّوه من مُفاجآت ، ضحكوا وقالوا :

ـ يا مولانا .. كيف تكونُ المفاجآتُ مفاجآتٍ إذا أخبرناك بها سَلَفاً ..

وهكذا انصرفَ الأهالي السُعَداء إلى بيوتِهم ليعدّوا مُفاجآتِ عيدِ الفرح الكبير . لذلك ظَنَنْتُ أنَّ صاحِبَنا التاجرَ يُعِدُّ في السرِّ فريقاً من المصارعين ، سوف يُرْكِبُهم عَرَبَةً واسعةً تجرُّها خيولٌ كثيرة ، لِيُقَدِّموا

ألعابَهم الرياضيةَ المدهشةَ أثناءَ استعراضاتِ المهرجانِ الليلي المنتظَر .

لكنني ، قبلَ مغيبِ شمسِ ذلك النهار ، فوجئتُ به قادماً إليَّ ، ومعه حوالي عشرةٍ من الرجال الأشدّاء ، وكلُّهم فُرسان ، وقال لي : « تعالَ معَنا » . وقدَّمَ لي فرساً فركبتُها ، ولم يترك لي فرصةً لأن أسألَه : « إلى أين » ، فقد انطلقَ مع فرسانِه مُسرعين ، وأنا معهم ، حتى وصلنا إلى مكانٍ خارجَ المدينة ، فيه غديرُ ماء ، وفيه بستانٌ جميلٌ وأزاهيرُ كثيرة .. فوجدْنا امرأةً شابةً جميلة ، يبدو عليها كأنها ملكة ، ومعها طفلٌ في حوالي السنتين من عُمْرِه ، له قِلادَةٌ من ذهب .. فقالَ المجرمُ الغَدَّارُ دليوان لأحد الرجال :

ـ خُذْها إلى وادٍ خلفَ ذلك الجبل الشماليّ واقتُلْها هناك ..

فأخذ الرجلُ تلكَ المرأةَ المسكينةَ التي كانت تصرخُ : وَلَدي .. وَلَدي ..

ثم نظرَ دليوان إليَّ وقال لي آمراً :

ـ أنتَ خُذْ هذا الولدَ إلى وادٍ خلفَ ذلك الجبلِ الجنوبي واقْتُلْهُ هناك .

ثم صرخَ بي قائلاً : هيّا .. أَسْرِعْ .. والويلُ لكَ إن علمتُ بأنكَ لم تُنَفّذْ أمري ..

ووضعوا الطفلَ في حُضْني ، وأنا ما أزالُ راكباً فرسي وقد عَقَدَتِ المفاجأةُ لساني ... وضربوا مؤخّرةَ الفرسِ بالسَوْطِ فذُعِرَتْ وانطلقَتْ بنا تعدو مُسْرِعةً كالسهم .. إلى أن وصلنا إلى غابةٍ بعيدة .. وكان الوقتُ ليلاً .. وكانت الفرسُ قد تعبتْ وصارَ الزَّبَدُ الأبيضُ يخرجُ من فمِها . فتوقَّفْتُ هناك ، وأنزلتُ الطفلَ وأنا حائرٌ ماذا أفعل ..

لم يُطاوِعْني قلبي أن أقتلَه .

ثم قلتُ لنفسي : لماذا أقتلُه ؟ .. لماذا لا أتركُه هنا ، في هذا





المكانِ البعيدِ جداً ، وأذهبُ في حالِ سبيلي ؟

وأمضيتُ الليلَ كلَّه وأنا أفكّر ..

وعندَ الصباح ، تركتُ الطفلَ في ذلك المكان ، بعد أن تَحَرَّيْتُ جسدَه فوجدتُ أنَّ له علامةً مميّزة ، وهي ثلاثُ شاماتٍ بُنّيَّةٍ على كتفِه الأيمن ، وأخذتُ القِلادَةَ الذهبية التي كانت مُتَدَلّيَةً على صدرِه ، وركبتُ الفرسَ ومضيت ..

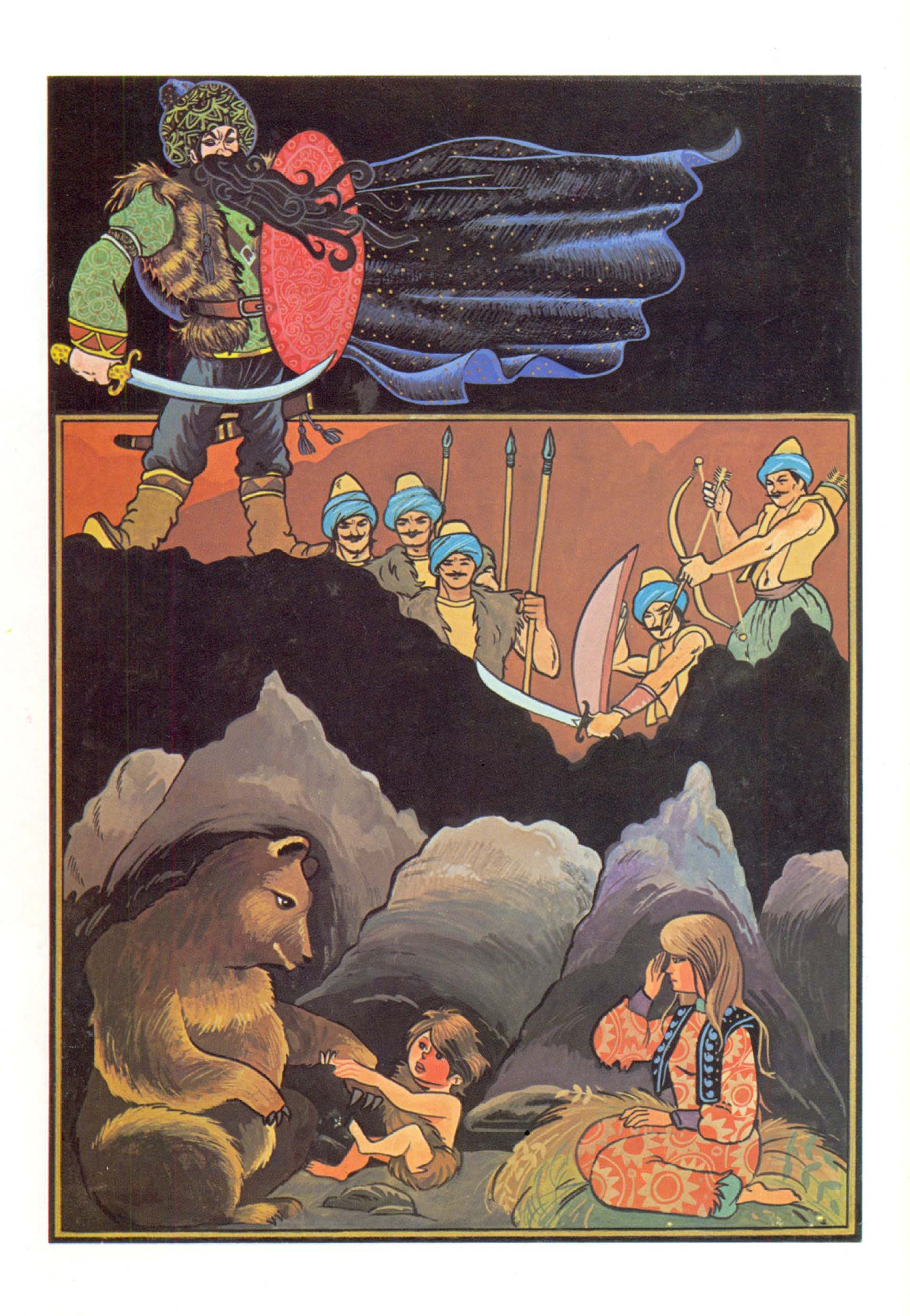
قالَ ابنُ الدب : مسكينٌ ذلك الطفلُ .. يكون قد ماتَ حتماً بعدَ أن تركتَه .. إلا إذا كانَ في المكانِ دِبَبَةٌ . فقد تأخذُه إحدى الدِّبَبَة لتُرَبّيهِ مع أبنائها ..

قالَ الرجلُ العجوزُ مُطْرِقاً : أرجو ذلك .

فسأله ابنُ الدب : وأنت ؟ أين ذهبت ؟

قال : ذهبتُ إلى بلدٍ بعيد ، حيثُ بعتُ الفرسَ وبقيتُ حوالي عشر سنوات .. إلى أن تَغَيَّرتْ هيئتي ، وصارَ لا يعرفُني حتى أقربائي ، فرجعتُ إلى بلدي علمستان ، وحين دخلتُ المدينةَ أذهلني ما سمعتُه من أنَّ ذلكَ المجرمَ دليوان ، حين رجعَ في تلك الليلة ، استغلَّ إنشغالَ الناس بالمهرجان ، فقتلَ الملكَ الصالحَ عُلَيْمان ، ونشرَ الذُعْرَ في المدينة بمن معه من الزبانية ، ونَصَّبَ نفسَهُ ملكاً .. وآنذاك فقط علمتُ أنَّ المرأةَ التي كانت مع الطفل هي الملكةُ ، وأنَّ ذلكَ الطفلَ هو ابنُ الملكِ عُلَيْمان الوحيد .. وأنَّ المجرمَ دليوان ، بعد أن قضى على الملكِ والملكةِ وابنهما ، غَيَّرَ اسمَ المدينة من عِلْمِسْتان إلى دَلْوستان ، وألغى شكلَ الكتابِ الذي كان شِعارَ المدينة ، وفرضَ مكانَه شِعارَ الدَلْو .. وراحَ يبتكرُ في كلِ يومٍ طريقةً جديدةً لاستغلالِ الناس ونهبِ أموالِهم .. وأنتَ سمعتَ قصتَه العجيبةَ في استغلالِ الماء . فلا يحقُّ لأحدٍ أن يجلبَ ماءً من النهرِ إلا بِدَلْوٍ من إنتاجِ مصنعِ الملكِ الظالم .. وهكذا تزدادُ ثروتُه باستمرار ، ويزدادُ





عَدَدُ الزبانية الشَرِسين الذين يستأجِرُهم لحراستِه والتنكيلِ بالأهالي .. فهم مثلاً يخرقون الدِلاءَ التي عندَ الأهالي حتى يُضْطَرّوا لشراءِ دِلاءٍ جديدةٍ بَدَلاً منها ..

وكنتُ خائفاً جداً من أن يكتشفَ الملكُ دليوان بأنني لم أقتلِ الطفلَ .. لذلك غَيَّرْتُ صنعتي ، فلم أعملْ في صيدِ السمك ، وإنما رُحْتُ أصنعُ أقفاصاً للعصافير وأجلسُ تحتَ شجرةِ التوت ، في ساحةِ السوق لأبيعَها ، ويدي تَتَلَمَّسُ قِلادةَ ابنِ الملك التي حافظْتُ عليها طولَ هذه السنوات .. لأنَّ قلبي يُحَدِّثُني بأنَّ ذلكَ الطفلَ لم يَمُتْ ، وربّما رجعَ إلى المدينة يوماً ما ، فأعيدُ إليه قِلادتَه تكفيراً عن ذَنْبي ..

ثم قالَ الرجلُ العجوزُ بعد لحظةِ صَمْتٍ : « وها هيَ القِلادَةُ » .

وأَخرجَ من جيبِه قِلادَةً ذهبيّةً رائعةً تنتهي بدائرةٍ منقوشٍ عليها شكلُ كتابٍ مفتوح ..

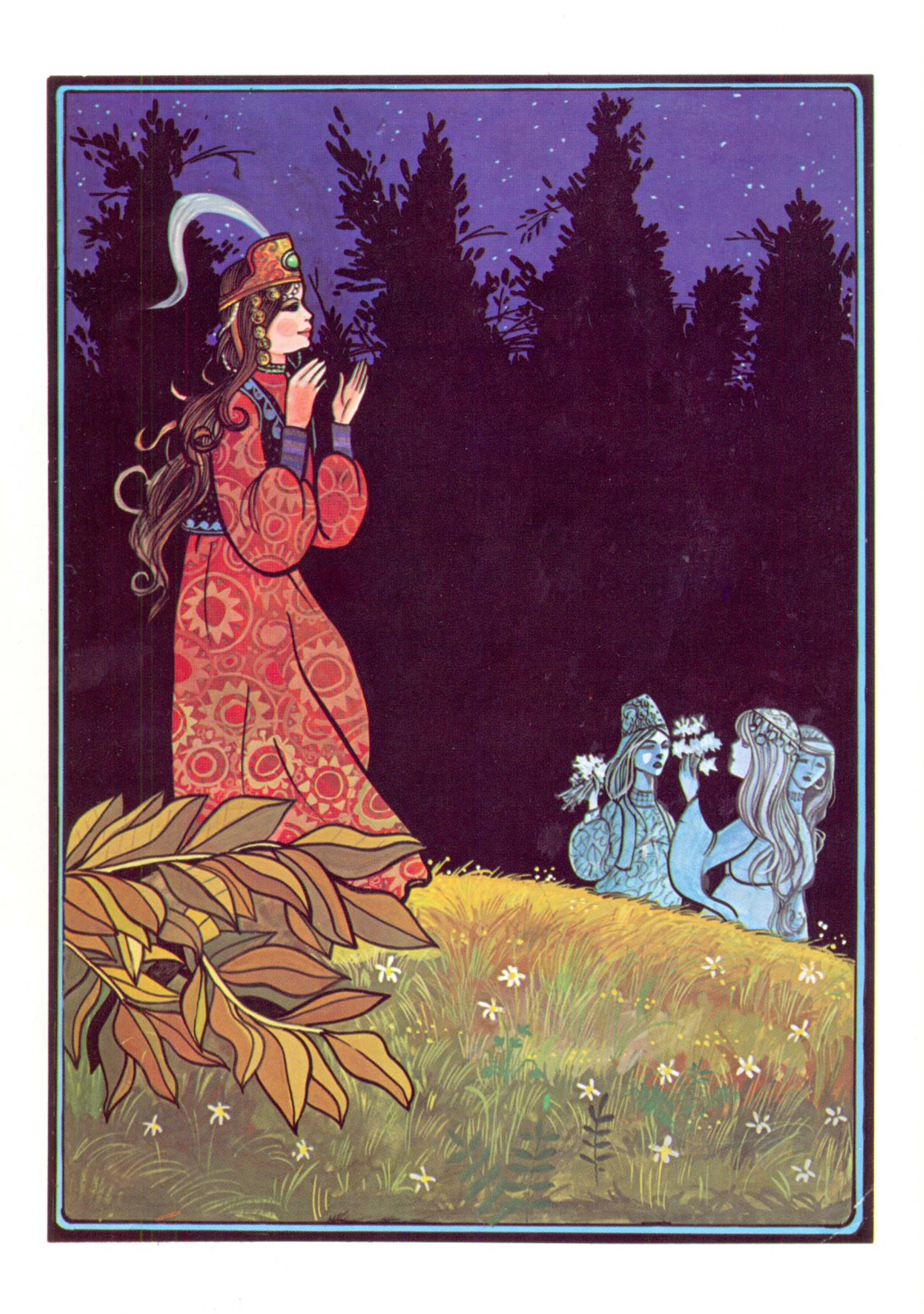
لكن ابنَ الدُبِ لم يهتمّ (ربّما لأن الدُبَّةَ علّمَتْه أنَّ السَعادةَ تكونُ بالعملِ النافعِ لا بالذَّهبِ والجواهر) وإنّما سألَ الرجلَ :

ـ والمرأةُ ؟! .. تلك الملكةُ الجميلةُ أُمُّ الطفلِ .. ماذا جرى لها ؟

قالَ الرجلُ :

ـ أَظنُّ أنها ما زالت حَيَّةً تعيشُ هناكَ في وادٍ ما خلفَ الجبلِ الشمالي .. لأنني بعدَ الحادثةِ بحوالي خمسِ سنوات ، عندما كنتُ في بلادِ الغُربة ، لمحتُ ذلكَ الرجلَ هناك . وهذا يعني أنه لم يَقْتُلِ الملكةَ ، لأنه لو كان قد قتلَها لرجعَ إلى دليوان .. ولكنْ يبدو أنه فعلَ مثلي ، فعطفَ على تلك المرأةِ المسكينة ، وتركَها هناكَ تدبِّرُ أمورَها ، بعد أن نصحَها بعدمِ العودةِ إلى المدينةِ ، لأنَّ في مُخَطَّطِ دليوان أنْ يقتلَ زوجَها الملك ..





ولقد هَمَمْتُ بأن أسألَه عنها .. لكنني خشيتُ أن يظنّني من رجالِ دليوان فيفتكَ بي أو أفتكَ به .. لذلك تركتُه ومَضَيْتُ دون أن ينتبهَ إليّ .

قالَ ابنُ الدبّ : إنها لَحكايةٌ مؤثِّرةٌ فِعلاً .. ومِنْ حَقِّكَ عَلَيَّ أنْ أفي بوعدي فأكشفَ لكَ عن ذِراعي ..

وكانتِ الشمسُ قد أشرقتْ ، لأنَّ سَرْدَ الحكايةِ استغرقَ الليلَ كله ، فكشفَ ابنُ الدُبِ عن ذِراعِه فإذا به يرى على كَتِفه الأيمن ثلاثَ شاماتٍ بُنّيّة .. كأنّه ينتبهُ إلى ذلكَ لأولِ مرَّةٍ في حياته ..

أما الرجلُ العجوز فقد أمسكَ يدَ ابنَ الدب وهو يتوسَّلُ باكياً : سامِحْني يا سيّدي الأمير .. سامِحْني يا سيدي الأمير ..

فسألَه ابنُ الدُبِ مُنْدَهِشاً :

« ماذا جرى لك ، وما هذا الذي تقول ؟ »

فقالُ الرجلُ وهو يمسحُ دموعَه : وأنتَ أميرُنا الحقيقيُّ ابنُ ملكِنا الراحلِ عُلَيْمان الذي كنّا نحبّه كثيراً .. وهذه قِلادَتُكَ يا مولاي ..

ووضعَ القِلادَةَ الذهبيةَ حولَ عُنُقِ ابنِ الدب .. فتدلَّتْ على صدرِه تَتَوهّجُ بألَقٍ يخطفُ الأبصار .





٤

في تلك الليلةِ حدثَتْ أمورٌ عجيبة في مدينةِ دلوستان..

ربّما لأنَّ الإيمان والحُبَّ والحَماسة تصنعُ الأعاجيب.

فالحَدَّادُ ظَلَّ يعملُ مع صُنَّاعِهِ طولَ الليل.. كانوا يصنعونَ سيفاً.. وعندما أشرقَ الصباحُ كانوا قد صنعوا سيفاً لم يرَ أحدٌ مثلَه من قَبْلُ.

والبيطارُ، الذي قرَّرَ أن يُقدِّمَ لابنِ الدُبِ حصاناً لا مثيلَ له، ظلَّ يستعرضُ في ذهنِه أحسنَ الخُيولِ التي يعرفُها، فلم يَجِدْ أفضلَ من حصانِ الملكِ دليوان، لكنْ كيفَ يمكنُ أَخْذُ هذا الحصان؟

– بالمال.

هكذا قال البيطارُ لنفسه.. فالملكُ دليوان إنسانٌ خسيسٌ وطمّاع. فإذا أغريناهُ بالمال فإنه يبيعُنا حتى حصانَه.

وهكذا خرجَ البيطار، في الليل، يدورُ على البيوتِ ويشرحُ فكرتَه ويجمعُ التبرُّعات، إلى أن صارَ معه مبلغٌ كبيرٌ من المال، وما إن أشرقَ الصباحُ حتى كانَ الملك دليوان قد باعَ حصانَه وهو يضحك.. لأنه قرَّرَ – بعد أن قبضَ الثَّمَنَ بلحظة – أن يُرْسِلَ زبانيتَه إلى دكّانِ البيطارِ ليستعيدوا الحصانَ بعد أن يتّهموا البيطارَ بجريمةِ السرقة..

وضحكَ الملكُ دليوانُ مرةً ثانية حين تَرَتَّبَتْ في ذهنِه هذه الخُطَّةُ الإجرامية. غيرَ أنَّ أطفالَ المدينة ضحكوا أكثَرَ منه.

فعندما أرادَ الأهالي أن يُرسلوا الحصانَ والسيفَ هديةً لابنِ الدبّ تذكّروا أنَّ بابَ المدينة مُغْلَق، وفَتْحُهُ ممنوع، وثَمَّةَ أربعةُ زبانيةٍ غِلاظٍ يحرسونه..



فقالَ الأطفالُ : نحن نوصِلُ الحصانَ والسيفَ لابنِ الدب . فنحنُ نعرفُ مكانَه .

سألَهم الكِبارُ : وكيفَ تفتحونَ بابَ المدينة .

أجابهم الأطفالُ : عندَنا خُطَّة .

ثم اصطفَّ ستةُ أطفالٍ وراءَ بعضِهم ، ثلاثةُ أولاد وثلاثُ بنات ، وحملوا السيفَ الثقيلَ على أكتافهم ، ومشوا .. وكانَ ثَمَّةَ طفلٌ سابعٌ قد جرَّ الحصانَ من عِنانِه (أي رَسَنِه) بعدَ أن أَلْقَمَهُ حَبَّةَ سُكَّر ، وهي طريقةٌ جميلةٌ للتعارفِ والصداقةِ مع الحصان ..

وحين وصلَ الأطفالُ السبعةُ إلى بابِ المدينة المُغْلق ، قالوا للزبانية : نحنُ على مَوْعِدٍ مع ابنِ الدُبِّ أنْ يأتينا إلى هذا المكان في هذه الساعة .. فإنْ لم تفتحوا البابَ فإنَّ ابنَ الدُبِّ يُحَطِّمُه بضربةٍ من قبضةِ يَدِه ويقتُلكم .. أمّا إذا فتحتُموه بالحُسْنَى فإننا نكفلُكم عندَه ..

وقد نَجَحَتِ الخطة ..

وفرحَ ابنُ الدبِ كثيراً عندما استلمَ الحصانَ والسيف .

وفرحَ الأطفالُ كثيراً عندما رأوا صديقَهم ابنَ الدبِ سعيداً ..

ولاحظَ واحدٌ منهم القِلادَةَ الذهبية فقال : ما أعجبَ ما أرى .. إنَّ الشعارَ المنقوشَ على هذه القِلادةِ يشبه النقشَ المنحوتَ فوقَ بابِ مدرستِنا قبل أنْ يُغْلِقَها الملكُ دليوان ويطردَنا منها ..

فأخبرَهم الرجلُ العجوزُ قصةَ ابنِ الدب فهتفوا صارخين : « يحيا أميرُنا الباسل » .. وكادَ صُراخُهم العالي ـ من شدّة الفرح ـ يصلُ إلى المدينة .. لذلك نصحَهم الرجلُ العجوزُ بأن يُخْفِضوا أصواتَهم ، لأنَّ هذا الأمرَ ينبغي أن يظلَّ سرّاً لا يعرفُه الملكُ دليوان وزبانيتُه الظالمون .. وذلك رَيْثَما يعودُ ابنُ الدبِ من رحلتِه ليُحَرِّرَ المدينة ..





فقالَ أحدُ الأطفالِ بحماسةٍ : نحنُ نعاونُه في معركةِ التحرير ..

وقالت طفلة : نحن وكل أهل المدينة معنا ..

فقال الرجل العجوز : وهذا ما اتفقتُ مع مولايَ الأمير عليه .. فأثناءَ سَفَرِه نستعدُّ نحن الأهالي ، وننظّمُ صفوفَنا ونوحّدُ قُوانا حتى نصبحَ قادرين على مساعدةِ ابنِ الدب عند عودتِه لننتصرَ في خَوْضِ معركةِ التحرير .. لأنَّ إنساناً مفرداً لا يستطيعُ أن يحقّقَ وحدَهُ عملاً عظيماً ، مهما كان قوياً ، بل على الأهالي جميعاً أن يُشاركوا في معركةِ التحرير ..

فقالتِ الطفلةُ : ولكنَّ الأهالي مستعدّونَ لهذا الأمرِ منذُ اليوم ..

وأمسكَ طفلٌ بيدِ ابنِ الدب وقال له : لماذا لا تقودُ المعركةَ منذُ اليوم ؟ لماذا تُسافر ؟ ..

لم يَرُدّ ابنُ الدب .. فقد غلبَهُ التأثُّر .

وعندما ألحَّ الأطفالُ بالسؤالِ قال لهم الرجلُ العجوز :

ـ إنه مضطرٌ للسَّفَر .. لأنه يريدُ أن يبحثَ عن أُمهِ وينقذَها مما هي فيه .

فقالَ الأطفالُ بصوتٍ واحد : معه حَقّ .. فالأمُ أغلى شيءٍ في الوجود ..

وودع ابنُ الدبِ أصدقاءَهُ وركبَ حصانَه ومضى مُتوجِّهاً نحو الشمال ..







لم يكنِ ابنُ الدبِ يتوقَّعُ أن يكونَ الطريقُ إلى الجبالِ الشمالية طويلاً إلى هذا الحد . فقد مشى راكباً حصانَه الرائعَ أياماً وأياماً ، كان يطوي الليلَ بالنهار ، ووُجْهَتُهُ دائماً نحوَ الشمال . وكانَ الرجلُ العجوزُ قد عَلَّمَه بأنْ يجعلَ الشمسَ عن يمينه ، عندَ الصباح ، وبذلك تكونُ وجْهَتُهُ إلى الشمال صحيحة .

لكنَّ الطريقَ طويلٌ جداً .. فكم نهراً قطعه ابنُ الدب مع حصانِه ، وكم غابةً كثيفةً اخترقَها ، وكم منطقةً صحراويةً اجتازَها !

وكانَ كلّما أحسَّ بالتعبِ تذكَّرَ أمَّه التي يَحِنُّ إليها ويُريدُ أن يتعرَّفَ بها ويعرفَ شكلَها .. إنه يريدُ ـ على الأقلّ ـ أن يعرفَ ما إذا كانت أمُه ما تزالُ حَيَّة . وقلبُه يحدِّثُه بأنها حيةٌ فعلاً ، وأنها تعيشُ في مكانٍ ما هناك خلفَ الجبلِ الشمالي .. فيتجدَّدُ عَزْمُه ويُواصلُ السَّيْرَ .. لكنْ كيفَ سيجدُها ؟ وبأيَّة طريقة ؟

وكانَ يشعرُ باطمئنانٍ كلّما وصلَ إلى غابةٍ جديدة . رغمَ أن الرجلَ العجوز كان قد حَذَّرَهُ من وحوشِ الغابة .. لكنَّ ابنَ الدُب ـ على عكسِ ذلك ـ يحسُّ بأن وحوشَ الغابةِ أصدقاؤه .. ألمْ يَعِشْ بينها طـول حياته ؟ .. أليسَ يعرفُ كيفَ ينادي الدِّبَبَةَ أو الأسودَ أو النُمورَ متى يشاء ، فتأتي إليه مَرِحَةً سعيدة ، وتتجمَّعُ حولَه وتُلاعِبُه وتُداعِبُه ، وقد تُساعده عند الخطر ؟

فكيف تكونُ هذه الحيواناتُ الصديقة وحوشاً ؟ .. « لا .. لا .. لا توجد وحوش » . هكذا قالَ ابنُ الدبِ لنفسه .

وكان قد وصلَ إلى منطقةٍ عندَ تُخومِ الغابة ، تُطِلُّ على سهولٍ خضراءَ واسعة ، يجتازُها نهرٌ هادىءٌ جميل تتلامَعُ على صفحتِه التي تُشْبِه

المرآة صورةُ مدينةٍ قائمةٍ على الضفةِ المقابلة .. وكان النهرُ ، في هذه المنطقة ، مليئاً بأسرابِ البَط ..

كيفَ يعرفُ ابنُ الدب أنه وصلَ مدينة بَطّسْتان ؟

أعجبَه المنظرُ كثيراً فنزلَ عن حصانِه ، وقرّرَ الاستراحةَ ساعةً ريثما يَشْبعُ الحصانُ من هذا العشبِ الأخضرِ اليانِـع ..

تركَ الحصانَ يرعى ، وتغلغلَ في الغابة ليبحثَ عن الشجرةِ التي عَلَّمَتْهُ الدُبَةُ أنَّ ثمرَها أشهى ثمرةٍ في الدنيا : « شجرةُ عِنَبِ الدب » . فقد كان جائعاً ، وعنبُ الدبِ طعامُه المفضَّل ..

لكنه ما إن سارَ خطوات ، حتى شعرَ بأنَّ الأرضَ المُغطّاة بأوراقِ الأشجارِ اليابسة ، قد انخَسَفَتْ من تحتِه ، وأنه يسقطُ في هُوَّةٍ عميقة .. ماذا جرى ؟

لم يشعرِ ابنُ الدبِ إلّا أنه صارَ في قَعْرِ حُفْرَةٍ كبيرة ، كانت فوهَتُها مُغَطّاةً بالأغصانِ والأوراق .. وعند حَوافِّ الفوهَةِ العالية ، هناك فوق ، تُطِلُّ عليه رؤوسُ ثلاثةِ رجالٍ ضاحكين ..

وقال له واحدٌ منهم : إبْقَ هنا حتى تموت ، فإنكَ لن تستطيعَ الخُروجَ من هذه الحُفرة ..

وقال له الثاني : نشكرُكَ على هذا الحصانِ الرائع .. فإن ملكَنا بطيوان مُغْرَمٌ بالخُيولِ الأصيلة ، وقد يدفعُ لنا ثَمَنَ الحصانِ ألفَ بَطّة ..

أمّا الثالثُ فقد أهالَ عليه حفنةَ ترابٍ كادت تُعمي عينيه .. فغضبَ غضباً شديداً ، ومَدَّ يدَه إلى مِقْبَضِ سيفهِ .. لكنْ مَنْ يقاتلُ بسيفهِ وهو وحيدٌ هنا في قاعِ الحُفْرَة العميقة ؟ .. وكيفَ يمكنُه الصُعود واللحاقُ بهؤلاء الوحوش ؟ .. ولماذا لم يُحَذِّرْهُ الرجلُ العجوز من هذا النوعِ من الوحوش ؟ .. وهل هؤلاء بَشَرٌ والدببةُ وحوش ؟





عندما سألَ ابنُ الدبِ نفسَه هذا السؤالَ خطرت له فكرة .. لماذا لا يفعلُ ما كانت تفعله الدببةُ التي رَبَّتْهُ حين تقعُ في مأزق ؟ .. لقد كانت تصرخُ بصوتٍ مُعَيَّنٍ فتأتي دِبَبَةٌ كثيرةٌ لمساعدتِها وتخليصِها من مأزقها .

وهكذا فعلَ ابنُ الدب .. صاحَ بذلك الصوت مرةً .. ومرّتين .. وانتظر .. وظلَّ رافعاً بَصَرَهُ إلى فَوْهَةِ الحُفْرَةِ العالية ..

لكنْ لمْ يأتِ أَحَد ..

كَرَّرَ النداءَ وانتظر .. وقد ازدادَ قلقُه .. ثمَّ كَرَّرَ النِّداءَ بصوتٍ أعلى وانتظر .. وكانتِ الشمسُ قد أصبحَتْ فوقَ فوهةِ الحُفرة تماماً .. لذلك فإنّ عينيه لم تلاحظا إلّا بصعوبةٍ بالغة ، رؤوسَ الدِّبَبَةِ الكثيرة التي كانت تُطِلُّ من حَوَافِّ تلك الفوهة .. لكنه حين سمعَ أصواتَها أدركَ أن خطتَه نجحَتْ تماماً ، وأنَّ أصدقاءَهُ جاءوا لمساعدتِه ..

ونحنُ نعرفُ أنَّ الدُبَّ ، رغم أنه دُبّ ، فإنه يفهمُ أيضاً .. وقد فَهِمَتِ الدببة أن صديقَها في مِحْنَة ، فرَمَتْ إليه ببعض الأغصانِ الطويلة ، فشبكَها مع بعضِها كيفما كان ، حتى صارت مثلَ سُلَّمٍ بسيط ، فتسلَّقَهُ وصعدَ وهو يكادُ يطيرُ من الفرح ، ويكاد ينفجرُ من الغضبِ أيضاً ..

شكرَ ابنُ الدُبِ أصدقاءَه الذين كانوا هم أيضاً يبتسمونَ مبتهجين ، وقال لهم ـ بلغةِ الدِّبَبَةِ طبعاً ـ : تعالَوا معي .

وأسرعوا جميعاً نحو المدينة : بَطّسْتان .

كانَ منظرُهم مُدْهِشاً ومُخيفاً .. حتى أنَّ أسرابَ البَطّ طارَتْ كلّها مذعورةً خائفة عندما اجتازَ النهرَ هذا الشابُ العجيبُ الذي يقودُ عدداً من الدببة المخيفة ..

وعندما وصلوا إلى الضفةِ الثانية ، وعادوا يركضونَ من جديد ، خشيَ

ابنُ الدبِ أن تسقطَ القِلادةُ لكثرةِ ما تهتزُّ حولَ عُنُقِهِ ، فخلعَها وخبّأَها في جَيْبِه ..

وكانَ بابُ المدينةِ مفتوحاً فدخلوه ..

وكانَ قصرُ الملكِ بطيوان عالياً فلم يحتاجوا إلى مَنْ يُرْشِدُهم إليه .

وهكذا دُوهِمَ الملكُ فجأةً ، وقد عَقَدَتِ الدهشةُ لسانَه .. وها هو في باحةِ قصرِه يتأمَّلُ محاسنَ الحِصانِ المسروق .

وكان أولَ ما فعلَه ابنُ الدبِ أنْ أمسَكَ باللصوصِ الثلاثة فضربَ واحدَهم بالآخر وهمْ يستغيثون .. ثم أَمَرهم أنْ يُبْهِجوا قلبَ الملكِ بطيوان بتمثيليةٍ طريفة .

قال لهم : عليكم أنْ يضربَ بعضكُم بعضاً وأنْ تظلّوا كذلكَ إلى أن تهلكوا ..

وكانتِ الدببةُ قد انتشرت مثلَ الحَرَسِ عندَ جُدرانِ القصرِ الملكي .. وكانت تضحك .. فقالَ ابنُ الدبِ للملكِ بطيوان : إضْحَكْ ..

فاضطُرَّ الملكُ لأن يضحك ، رغمَ أنَّ لسانَه ما يزالُ مَعقوداً من شِدّةِ الخوف .. وظلَّ يضحكُ إلى أن سقطَ اللصوصُ الثلاثة مغشيّاً عليهم من الضَّرْب .

وكانَ حَرَسُ القصرِ قد هربوا مَذعورين ..

وكان الناسُ جميعاً قد اختبأوا في بيوتهم . بعضُهم يقولُ إنَّ عددَ الدببةِ ألف .. وبعضهم يقول : إن عددَهم مائة ـ لكنهم جميعاً كانوا يقولون : إن هذا الشابَ العجيبَ جِنّيٌّ حتماً ..

حتى الملكُ بطيوان اعتقدَ أنَّ هذا الشابَّ جنّي ، لذلك فإنه ، عندما انحلّتْ عقدةُ لسانِه ، ركعَ بين يدي ابنِ الدب وهو يتوسَّلُ قائلاً : أرجوكَ سامِحني .. لا تَمْسخْني إلى عنزٍ أو بطّة .. فأنا لا أَحْتَمِلُ انتقامَكَ يا حضرة





الجنّي المُبجَّل .

فضحكَ ابنُ الدُب وسأَلَه : وماذا يعني جنّي ؟

أجابَه الملكُ بطيوان مُتَلَعْثِماً : يعني .. مثلاً .. تقول « يا ملك الجنّ الأحمر أَدْرِكْني » فيـأتي إليكَ بالمـال .. كيفَ لا تعرفُ هذا يا سيّدي ؟!

قالَ ابنُ الدب : أنا أعرفُ أنكَ مُذْنِبٌ لأنك رضيتَ أن تشتري حصاناً مسروقاً . وبذلك تُشَجِّعُ اللصوصَ بدلاً من أن تعاقِبهم .. تعالَ معنا ..

ـ إلى أينَ يا سيّدي ؟

ـ إلى ساحةِ المدينة ..

مشى الملكُ بطيوان طائعاً ذليلاً وساقاه لا تكادان تستطيعان حَمْلَهُ من شدّةِ الخوف .. فقد ظنَّ أن ابنَ الدبِ سوف يقتلُه هناك .. ولكنه ، عندما صاروا في ساحة المدينة ، فوجِىءَ بابنِ الدب يأمُره بأن يَرْقُص ..

ـ ماذا ؟

ـ أُرْقُصْ .. أنا آمرُكَ بأن ترقص .. والدببةُ تصفّقُ لـك .. أليستِ العادةُ أنْ يُصَفِّقَ الناسُ للدُبِ حتى يرقص ؟! .. أنا الآن أريدُ أن أفعلَ العكس .. فالدِّببةُ تصفّقُ وأنت ترقص ..

وما أسرعَ ما رقصَ الملكُ وسطَ الساحةِ الكبرى ..

وما أسرعَ ما فُتِحَتْ نوافذُ البيوت وأطلَّتْ منها الرؤوسُ ضاحكةً سعيدة ..

وما أسرعَ ما جاءَ الأطفالُ لِيَشْهَدوا هذا المنظرَ المُبْهِجَ اللذيذ ..

والدببةُ تصفّق والملكُ يرقصُ وابنُ الدب سعيدٌ جداً بأن يرى الفرحةَ الغامرة تملأُ قلوبَ أطفالِ المدينة ..



لذلك سألَهم : هل تحبّون أن يرقصَ لكم الملكُ ؟

أجابوا بصوتٍ واحد : نعم .. نعم ..

فقال لهم : إذَنْ فكلّما أردتم ذلك أَصْدِروا أمرَكم إليه بأن يرقص .. فإنْ رفضَ استَدْعوني ..

سألوه : وكيف نطلبُكَ .. كيف نُناديكَ ؟

أجابهم : قولوا بصوتٍ مرتفع « يا ابنَ الدُبِ أدْرِكْنا » فآتيكم في الحال ..

وركبَ حصانَه ومضى ، والدببةُ الظريفةُ تجري خلفه مسرورة ..

أما الملك بطيوان فقد ظلَّ يرقصُ إلى أن قالَ أحدُ الخُبَثاء : يبدو لي أن مدينَتنا بطّستان سيصبحُ اسمُها رقصستان .



عندما رأى ابنُ الدبِ أطفالَ مدينة بطّستان ، وضحكاتِهم الجميلة ، تذكّرَ رفاقَه أطفالَ دَلْوستان الذين وَعَدَهم بأن يرجعَ إليهم لتخليصِهم من ظلم الملك دَلْوان ، فحَثَّ نفسَه على السُرْعَةِ في الوصولِ إلى جبلِ الشمال للبحثِ عن أمِه والعودةِ معها إلى دلوستان ..

وكانت الدِّبَبَةُ قد رافقته مسافةً طويلة من الطريق ، غير أنه عندما لاحظ أنها غيرُ قادرةٍ على مُجاراةِ سرعةِ حصانِه شكرَها وودَّعها وطارَ فوق صَهْوَةِ حصانِه الذي يُسابقُ الريح . وقد لاحظَ ابنُ الدبِ بعد ذلك أنَّ الريحَ في هذه البلاد باردة ، وأن أمامَه عندَ خطّ الأُفُقِ البعيد ثلوجاً فوقَ قمةِ جبلٍ عالٍ . فقال لنفسه : « ربَّما كانَ هذا هو الجبلُ الشمالي المقصود » . ولمْ يخطرْ على بالِه أنه صارَ في أراضي فَرْوستان . رغمَ أنه لاحظَ أنَّ قُطعانَ الغَنَمِ والماعز كثيرةٌ في هذه البوادي الخضراء الجميلة .

وعندما وجدَ راعياً توقَّفَ وسألَه ، وهو يُشيرُ بسيفِه إلى ذلك الجبل المغطّى بالثلوج :

ـ أيها الراعي .. هل ذلك الجبلُ هو جبلُ الشمال ؟

فأجابه الراعي باضطرابٍ وتلعثُمٍ : بلى يا سيّدي ..

ظنَّ ابنُ الدبِ أنَّ الراعي مُضْطَرِبٌ لأنه خائف منه ومن سيفه . ولم يخطرْ على بالِه بأنَّ الراعي مضطربٌ لأنه خائف عليه ، ويريدُ تحذيرَهُ من عصابةِ مُجرمينَ كامنينَ هناك خَلْفَ التلَّةِ الصخرية التي لا بُدَّ للمُسافرِ من أنْ يَمُرَّ بقُرْبِها ..

لذلك فإنه لم يفهمْ ماذا يجري عندما سمعَ صُراخَ فتاةٍ تستغيثُ باكيةً : « أَنْقِذوني » . وما إن وصلَ إلى قُرْبِ التلّةِ الصخريّةِ حتى بَرَزَ له سبعةُ فُرسانٍ أشدّاء وباغَتوه بهجومهم عليه ، وقد استلّوا سيوفَهم وشَهَروا





رماحهم . وكان واحدٌ منهم يصرخُ بوجهِه : « حصانَكَ أو حياتَك » ـ ويبدو أنَّ هذا هو رأسُ العصابة ـ . لذلك فإنَّ ابنَ الدُبّ بدأ به فجَنْدَلَهُ بضربةٍ واحدةٍ من سيفِهِ فَخَرَّ صريعاً .. ثم دارت معركةُ قتالٍ عنيفة ..

كان ابنُ الدبِ يقاتلُ المجرمين الستةَ دفعةً واحدة .. وكان خلالَ القتالِ والطِعانِ يُلاحظُ أنَّ هناكَ فتاةً مُقَيَّدَةَ اليَدَيْن واقفةٌ حَدَّ الصخرة ، وفي نَظَراتِها خوفٌ شديد .. فقرَّرَ أن يأسُرَ هؤلاءِ المجرمين أحياءً لكي يُرْغِمَهم على أن يعتذروا لها ويُكَفِّروا عن ذَنْبِهم معها .. وهكذا فإنه كانَ بكلِّ ضربةِ سيفٍ يقطعُ ساقَ حصانٍ ، إلى أن سقطَ المجرمونَ جميعاً عن صَهَواتِ خيولهم الجريحة ، وكانت سيوفُهم ورماحُهم أيضاً قد سقطتْ من أيديهم بتأثيرِ الارتجافِ الشديدِ الذي أوقعَه الخوفُ في قلوبهم .. وركعوا يتوسّلونَ بذُلٍّ واستعطاف : « دخيلك .. لا تقتلنا » .

نظَرَ ابنُ الدبِ إلى وجهِ الفتاة فوجدَ أنها صارت الآن سعيدة ..

فسألَها : ما تأمُرينَ أن أصنَعَ فيهم ؟

قالت : أُقْتُلْهم .. إنهم مجرمون متوحِّشون . وأنتَ لا تعرفُ مبلغَ ما أنزلوه بي من العذاب ..

فصرخَ المجرمون متوسِّلين : التَوْبَة .. التَوْبَة ..

فأمَرَهم ابنُ الدب أن يفكّوا وِثاقَ الفتاة .. ثم أمَرَهم أن يُقَيِّدوا أيديهم بالحبلِ ذاته .. ووقفَ مع الفتاةِ لِيُطَمْئِنَها على حالِها .. فقال لها مُبتسماً : هل تأمرينَ بأن أجعلَهم يرقصونَ لكِ رقصةَ الدُب ؟

قالت : مَنْ أنت ؟ .. ومِنْ أيِّ بلادٍ جئت ؟ .. وماذا تريد ؟

أجابَها مبتسماً أيضاً : أنا لا أعرف من أنا .. ولكنْ يقولون إنني ابنُ الدب .. وقد جئتُ من بلادٍ بعيدة لأبحثَ عن أمي .. وأنتِ ؟ مَنْ أنتِ ؟





قالت : أنا الأميرة « قمر الزمان » ابنةُ الملك فريوان ..

سألها : وماذا يعني فريوان ؟

قالت : اسمُه هكذا لأنه ملكِ بلادِ الفرو .. فبلادُنا هذه اسمُها فروستان ..

سألَها : وما هي قصّتُكِ مع هؤلاء المجرمين ؟ ..

ترقرقتِ الدموعُ في عيني الفتاةِ وراحتْ تبكي .. فاشتعلَ ابنُ الدب غضباً على هؤلاءِ المجرمين الذين ما إن التفتَ نحوَهم حتى لاحظَ أنَّ ثيابَهم هي الثيابُ ذاتها التي يرتديها زبانيةُ الملك دليوان .. فصرخَ فيهم غاضباً : الويل لكم يا مجرمون .. هل وَصَلَتْ فِتَنُ دليوان إلى هذه البلادِ أيضاً ؟ ..

فسألته الفتاةُ بلهفة : هل تعرف ذلك الرجلَ أيها الشابُ الشجاع ؟

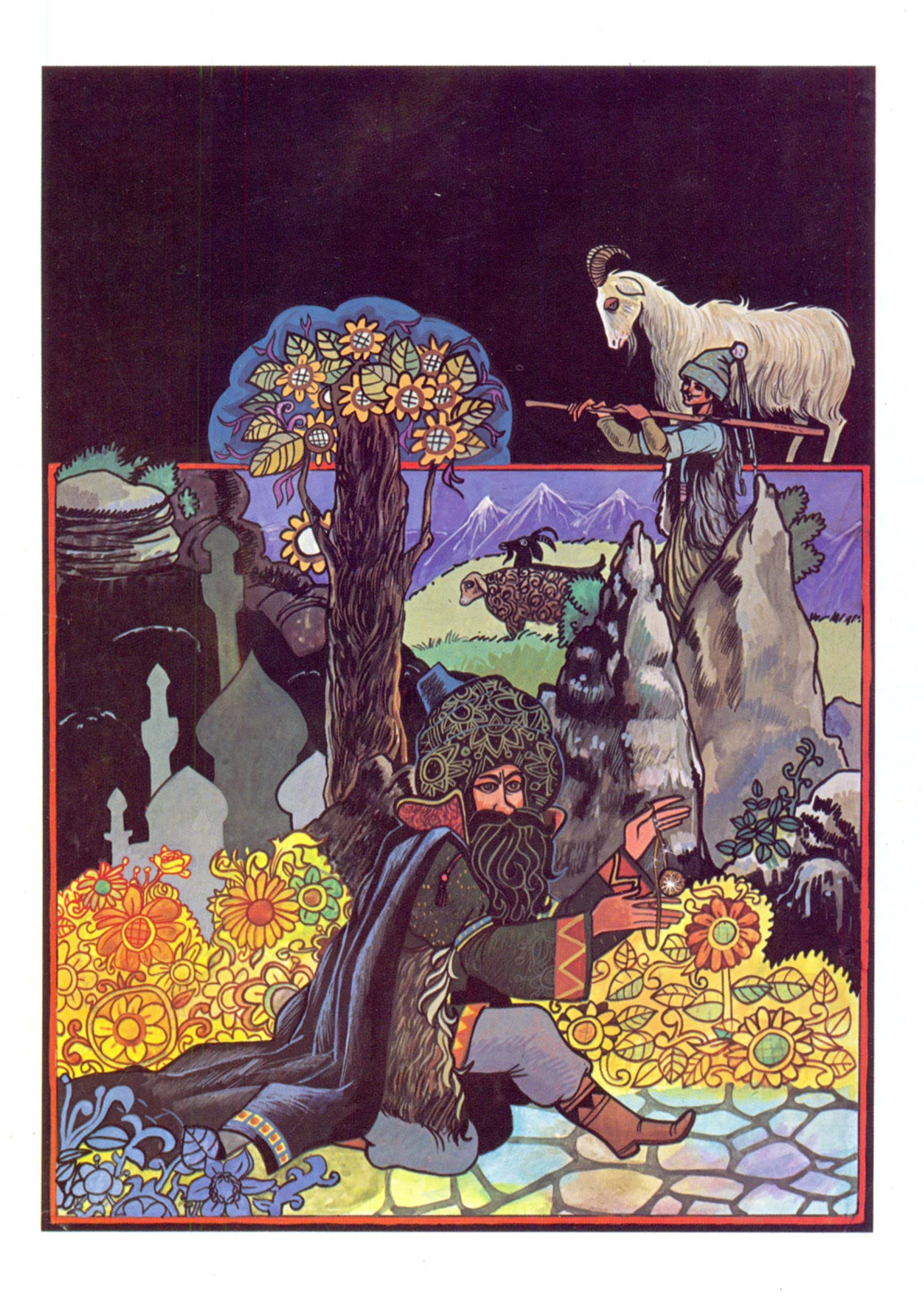
أجابها : وكيفَ لا أعرفُه .. إنه ملكٌ بَشِعٌ ظالم عاهدتُ أطفالَ بلادي أن أُخَلِّصَهم منه ..

قالت : إذن تستطيعُ الآن أن تفهمَ هَوْلَ مأساتي .. فقد أرادَ دليوان أن يحطّم قلبَ أبي الملك فريوان ، فأرسلَ هؤلاء المجرمين ليختطفوني ويأخذوني إليه لأُصبحَ خادمةً في قصره .. وأبي يحبّني كثيراً ، وقد صرفَ حياتَه في تربيتي والعنايةِ بي منذ وفاةِ أمي وأنا طفلة ... ولا شكَّ أنه الآن يبحثُ عنّي في كلِ مكان ..

فقال ابنُ الدب : سوف نُريحُه من عَناءِ البحثِ عنك ، ونأخذُكِ إليه .. هل تعرفينَ الطريق ؟

قالت : طبعاً أعرفُه .. لكنْ ماذا تفعلُ بهؤلاءِ المجرمينَ الستة ؟

قال : نسوقُهم أمامَنا حتى نسلِّمَهم لأبيكِ الملك فيتّخذَ بشأنِهم القرارَ الذي يراه .. وإنْ كنتُ شخصياً أميلُ إلى وضعِهم في قَفَصٍ خاصٍّ ضمنَ حديقةِ الحيوانات حتى يتفرَّجَ عليهم الناسُ بَدَلاً من أن يتفرّجوا على





الدببة .. فالوحوش الحقيقيون هم أمثال هؤلاء .. لا الدببة ..

فضحكتْ قمرُ الزمان لأول مرة ، وخفقَ قلبُ ابنُ الدب وقال لنفسه : ما أجملَها ! !

وحينَ هَمَّ بأن يحملَها لتركَبَ الحصانَ سَمِعَ أصواتَ صهيل خُيول مُقْبِلَةٍ من بعيد . فوقفَ بجانبِها يتطلّعان نحوَ مصدرِ الصوت . فإذا هو جَمْعٌ من الفُرسانِ المُقبلين نحوهم .. فقالت قمرُ الزمان : أما أخبرتُكَ أنَّ أبي يبحثُ عنّي في كلِّ مكان ..

ثم ما لبثَتْ أنْ هتفَتْ بفرحٍ عظيم : « أبي » عندما لاحظَتْ أنه في مُقَدِّمَةِ الفرسان .. لكن أباها ، بدلاً من أن يُسرعَ لاحتضانها ، هَجَمَ على ابنِ الدب وشَرَرُ الغضبِ يَقْدَحُ من عينيه . فصرخَتْ به قمرُ الزمان : لا يا أبي .. لا .. هذا الفتى الشجاع هو الذي خَلَّصَني من هؤلاء المجرمين .

نظرَ الملكُ فريوان (الذي كان يرتدي عباءةً من الفرو الثمين) إلى الزبانيةِ الستةِ المقيَّدين وسألَ ابنتَهُ : إذا كان هذا الشابُ قد خَلَّصَكِ منهم ، فلماذا لم يقتلهم ؟

قالت : لأنه يريدُكَ أن تضعَهم في قفصٍ ليتفرَّجَ عليهم الناسُ بدلاً من الضبع .

فانفجرَ الملكُ فريوان ضاحكاً ، ونزلَ عن فرسه ، وضمَّ ابنتَه إلى صدرِه مسروراً ، ثم صافحَ ابنَ الدب وشكَرَهُ ، ثم أمرَ مَنْ معه أن يذهبوا فيُعلنوا للناسِ أن ملكَهم وجدَ ابنتَه الحبيبة .. وقال لهم : خذوا هؤلاء المجرمين معكم .

جلسَ الثلاثةُ معاً : الملكُ والأميرةُ وابنُ الدب .. وكان هناك راعٍ مع أغنامه وعنزاته ..

وقد لاحظ الملك فريوان المسرورُ جداً أن ابنتَه بدلاً من أن تجلسَ

حَدَّه ، جلستْ مُقابِلَهُ مع هذا الشاب الغريب .

قال الملك : إِسْمَعْ أيها الفتى الشجاع .. لقد وعدتُ بأن أُقَدِّمَ لمن يجد ابنتي مكافأةً ضخمةً جداً : ألفَ جِلْدِ خروفٍ تُعتبرُ من أحسنِ الفِراء وأثمنِها .. فما رأيُك ؟

قال ابنُ الدب : شكراً لك أيها الملك .. فأنا لستُ بحاجةٍ إلى الفِراء ..

فقال الملك : مستحيلٌ أن نتركَكَ بلا مكافأة . إن شئتَ نُعطيكَ بدلاً من الألفِ ألفين . لقد ساعدتَنا مساعدةً جليلة وعلينا أن نساعدَك . بِمَ نستطيعُ أن نخدمَك ؟

قالَ ابنُ الدب :

ـ ساعِدوني في البحثِ عن أُمي ..

ضحكَ الملكُ وقالَ : يا له من طَلَبٍ عجيب .. لا شكَّ أنكَ تمزح ..

فقال ابنُ الدب مُؤَكِّداً : بل هي الحقيقةُ أيها الملك .. وأنا ما جئتُ إلى هذه البلاد إلا للبحثِ عن أمي التي فقدتُها عندما كنتُ طفلاً صغيراً .. وقد ذُكِرَ لي أنها ربما كانت تعيشُ خلفَ ذلك الجبل ..

فأطرقَ الملكُ مفكّراً وقال : هذه مشكلةٌ فعلاً .. دعنا نفكّر قليلاً .

فقالتِ الأميرةُ قمرُ الزمان لابنِ الدب : معنى هذا أنكَ إذا رأيتَ أمك فلن تعرفَها .. وأظنُّ أنها هي أيضاً لن تعرفك ..

قال الملك : ها قد ازدادتِ المشكلةُ تعقيداً .. دعونا نفكّر أكثر ..

وكان من عادةِ الملك فريوان أنه ، عندما يفكّر بعمق ، يسحبُ من جيبِه ـ بحركةٍ عفوية ـ قِلادةً ذهبيةً فيُمَرِّرُ سلسلَتَها بين أصابعِه ، كما لو كانت مسبحة .

ولكن الذي حدثَ هذه المرة ، أنَّ الملكَ لاحظ أنَّ الشابَّ يُحَدِّقُ





كثيراً في القِلادةِ التي يُسَبِّحُ بها في يده .. حتى أنه ظنَّ بالشاب سوءاً .. فربما كان هذا الشابُ الغريبُ لصّاً وقد طمعَ بالقلادة .. فسأله : لماذا تُحَدِّقُ النظرَ بهذه القِلادة ؟

أجابهُ ابنُ الدب : لأنها قلادة أمي ..

فتساءل الملكُ والأميرةُ بصوتٍ واحدٍ وباستغرابٍ شديد : أمك ؟

قال : نعم .. أمي ..

وأخرجَ من جيبه قِلادةً وقدَّمها للملكِ قائلاً : وهذهِ قِلادتي التي تشبهُها تماماً ..

فقال الملك : إنهما متماثلتان فعلاً .. معنى هذا أنك أمير ..

قال ابنُ الدب : أميرٌ أو فقيرٌ لا يهمُّني .. وإنما يُهمُّني أن أجدَ أمي .. هل تعرفونَ مكانَها ؟ هل هي حية ؟ .. هل أستطيعُ أن أراها ؟ ..

قال الملكُ فريوان وهو غيرُ مُصَدِّقٍ ما يرى ويسمع : ما أعجبَ حوادثَ الدنيا ! !

ووضعتِ الأميرةُ الجميلةُ يدَها بحنانٍ على كتفِ ابنِ الدب وقالت : إطْمَئِنّ أيها الأمير .. أُمُكَ عندَنا في القصر .. تعيشُ مُعَزَّزَةً مُكَرَّمَةً منذ عشرين سنة .. وهي التي أشْرَفَتْ على تربيتي .. وهي مِنْ أَحَبِّ الناسِ إلى قلبي بعد أبي ..

فسألهما ابنُ الدب بوَجَلٍ : كيف ؟ .. كيف وصلَتْ إليكم ؟

فقال الملك فريوان : عندما استولى المجرمُ دليوان على عرشِ بلادكم عِلْمِستان ، قبلَ عشرين سنة ، وصلَتْ إلينا وهي في حالةٍ تَسْتَدِرُّ الشَفَقَةَ والعطف .. فتلقَّيناها بما تستحقُّ من التكريم ، وأنزلناها في القصرِ بمنزلةِ الملكة مُعَزَّزَةً مكرَّمة .. لأن أباك وأبي كانا على صداقةٍ ومحبّةٍ ووفاء .. وقد أَصرَّتْ أُمُكَ على أن تهديني هذه القلادةَ التي أَعْتَزُّ بها كثيراً ..



قالت قمرُ الزمان : لكنَّ الحكايةَ ما تزال طويلة .. فلماذا لا تتركُ أميرَنا يسمعُ بقيّتَها من فَمِ أمِه ؟

أظنُّ أنَّ قراءَنا الأعزاءَ يعرفون بقية القصة .. فقد أحبَّ ابنُ الدبِ الأميرةَ قمرَ الزمان وأحبّتْ قمرُ الزمان الأميرَ ابنَ الدب .. وتزوّجا وأُقيمَ لهما عرسٌ لم تَشْهَدْ مدينةُ فَرْوستان له مثيلاً .. وكانت أمُّ العريس وأبو العروس أسعدَ أهلِ الأرض في تلك الليلة ..

أما شهرُ العسل فقد قضاه العروسان على طريقِ العودة الطويل ، ومعهما الملكةُ السعيدة وكوكبةٌ من فُرسان فَرْوستان الأشدّاء ، الذين سوفَ يساعدون ابنَ الدبِ في معركةِ الانتقامِ من المجرم دليوان ..

غيرَ أنهم عندما وصلوا إلى المدينة لم يجدوا داعياً لتجريد سيوفهم .. إذ رأوا في سوقِ دلوستان رَجُلاً مُمَزَّقَ الثياب يركضُ من أولِ السوقِ إلى آخره ، فيقولُ له الأطفال : « جاءَكَ ابنُ الدب » فيرجعُ راكضاً من آخر السوقِ إلى أولِه ، فيقولُ له أطفالٌ آخرون واقفون هنا : « جاءَكَ ابنُ الدب » فيركضُ من أولِ السوق إلى آخره .. ويظلُّ الحالُ على هذا المنوال .. ويظلُّ الأطفالُ يضحكون .. وعندما يضحكُ الأطفال تكون المدينةُ كلها سعيدة ..

سألَتِ الملكةُ : مَنْ هذا الرجلُ الذي يَسْخَرُ منه الأولاد ؟

قيل لها : هذا دليوان ..



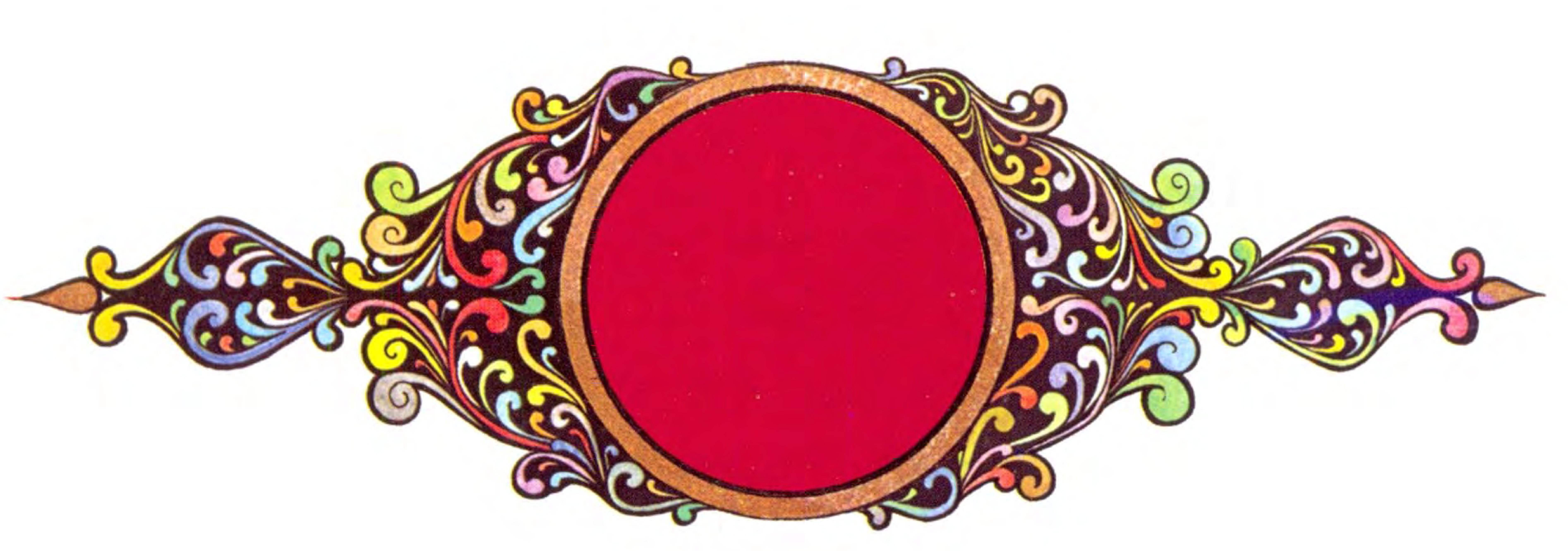


ابْن الدُّب

مكتبة الطفل . مكتبة الطفل . مكتبة الطفل . مكتبة الطفل . مكتبة الطفل

١٦ حكايات شعبية

ابن الدُّب



تأليف : شريف الرّاس
رُسُوم : علي المندلاوي

١



حدثَ ذلكَ في زمنٍ قديم ، وفي بلادٍ جميلة ، فيها غابةٌ ونهر وجبل وأزهار وطيور وأرانب وغُزلان وأطفال يحبونَ الرسمَ والأغاني والسباحة .. وفيها مدينةٌ عجيبة .

أعجبُ ما في تلك المدينة سوقُها .. ففوقَ بابِ كل دكانٍ في السوق يتدلَّى دَلْوُ ماء ..

حتى دكانُ خياطِ الثياب يتدلّى فوقَ بابه دَلْو .. حتى دكان الخباز ، والحلاق ، والنجار ، على بابِ كلٍ منهم دَلْو .. وهي جميعاً دِلاءٌ متشابهة تماماً كأنها مصنوعةٌ على قالَبٍ واحد في معمل واحد .. وهي جميعاً مختومةٌ بخاتمِ مَلِكِ المدينة .

وكان لتلك المدينة سُورٌ عالٍ مبنيٌ بحجارةٍ ضخمة منحوتة من صخور الجبل .. وكان لهذا السورِ بابٌ ضخم مُصَفَّحٌ بالحديد لا يُفتحُ إلا بأمرٍ من الملك ، ولا يُغلق إلا بأمرٍ من الملك . وكان الرجالُ القُساة الذين يفتحون ذلك البابَ الضخم والثقيل يجلسون في دلوٍ كبيرٍ جداً يتدلّى فوقَ باب المدينة ..

إذَنْ فقد كان اسمُ هذه المدينةِ العجيبة « دَلْوُسْتان » واسمُ ملكِها العجيب أيضاً « دليوان » الذي بيده اليمنى يُحَطِّمُ الصُّوّان وبيده اليسرى يُنْبِتُ الأقحوان « وهذا لَقَبُه » .. لكنْ بما أن هذا اللقبَ طويلٌ ومُتعب فقد نسيَه الناسُ ، ولم يبقَ للملكِ إلا اسمُه المجرَّدُ « دليوان » الذي كان في الأصل « دَلْوان » ولكنَّ الملك ذاته أمرَ بتحويلهِ إلى « دليوان » غِيْرَةً منه من مَلِكَي البلدين المجاورين لبلاده : فريوان وبطيوان (والأول ملك بلاد الفَرْو ، والثاني ملك بلاد البَطّ ، ولكلٍ منهُما حكايةٌ مدهشة سيأتي حديثُها في حينِه) .

وبما أن الملكَ دليوان يغارُ من جارَيْهِ الملكين فريوان وبطيوان غيرةً شديدة ، فقد قرّر دعوتَهما إلى وليمةٍ ملكية «لم يعرفِ الناسُ لها مثيلاً من قبلُ» حسب تعبيره .

لذلك فإنه جمع رجالَ المدينةِ جميعاً وساقهم إلى الغابة ليصطادوا كل ما يستطيعون اصطيادَه من الحيوانات ذاتِ الفِراء . فهو يريدُ أن يصنعَ تمثالاً لجَملٍ بحجمِ الجبل . وهذا يتطلّبُ جُلوداً كثيرة .. «لكنه سيجعلُ ضيفَنا الملكَ فريوان يَفْغَرُ فاه من فَرْطِ الدهشة ويقول : ما أكثَرَ الفِراءَ عندكم يا أهلَ دلوستان» ـ هكذا قال الملكُ دليوان لنفسِه .

أما الضيفُ الثاني فلن يدهشه شيءٌ قدرَ أن نفاجئه بتمثالِ بطةٍ بحجمِ الجبل أيضاً .. وتغطيةُ تلك البطةِ الضخمةِ جداً بالريش يتطلّبُ اصطيادَ آلافِ الآلاف من طيورِ البط ، ونتفَ ريشِها ، وتجميعَه ، وتلصيقَه بعنايةٍ على هيكلِ التمثال .. وهذه أعمالٌ تُتقنها النساءُ «لأنهن ماهراتٌ بحياكة السّجاد» ـ هكذا قال الملكُ دليوانُ لنفسِه ـ . لذلك فإنه جمعَ نساءَ المدينة جميعاً وانتدبهن لتأديةِ هذا العمل ..

ـ غير أن تمثالَ البطةِ ، يا مولاي ، يجبُ أن يعومَ في بركةِ ماء ..

هكذا قيلَ للملكِ دليوان . ففرحَ كثيراً وسألَ نفسَه كيف لم يفطن لهذا من قبل . وأصدرَ أمرَه بأن يُجْمَعَ أطفالُ المدينة جميعاً ـ بما أنه لم يبقَ في المدينة غيرُهم ـ ويُعْطَى كلٌّ منهم دلواً ، ويظلّون ينقلون الماء من النهرِ إلى أن يصيرَ حول تمثالِ البطةِ بحيرةٌ كبيرة .

ظلّ الأطفالُ أياما وهم ينقلونَ الماءَ من النهرِ بالدِلاءِ الثقيلةِ عليهم حتى أنهكهم التعب .. ولم يتجمّعْ حولَ تمثالِ البطةِ إلا الشيءُ القليل من الماء ..

صرخوا .. احتجوا .. ولكنّ السياطَ اللاذعة كانت تسوقُهم إلى العملِ دون رحمة ..





إلى أن وصلَ مدينةَ دلوستان شابٌ غريب .. يبدو من نَظَراتِه وتَلَفُّتاتِه أنه يدخلُ هذه المدينةَ العجيبةَ لأول مرةٍ في حياته .. بل يبدو من ثيابه أنه قادم من مكان مجهول . فقد كان يرتدي ، فوق ثيابه التي تشبه ثيابَ سكّانِ الجبال ، معطفاً من الفرو ، ويغطّي رأسَه بجلدِ غزال ، وينتعل حذاءً مصنوعاً من جلدٍ ثخين ، ربما كانَ جلدَ فيلٍ أو جلدَ كركدن .. ولم يكن معه عصاً أو سيف ..

مرَّ ذلكَ الشابُ الغريب من تحتِ الدلوِ الكبير الذي يتدلّى من قنطرة باب المدينة .. ثم وصلَ إلى السوق فوجدَه فارغاً .. كل الدكاكين مفتوحةٌ ولكنَّ الناسَ ليسوا هنا ، ما عدا رجلاً عجوزاً كان جالساً على مصطبة ، تحت شجرةِ التوت التي في منتصف السوق وبجانبه أقفاصُ عصافير ، غير أنها فارغة وليس فيها عصافير .. كانَ عجوزاً جداً إلى حدّ أنه كان يتّكىءُ على عكّازِه رغم أنه جالس .. ولهذا لم يأخذه زَبانِيَةُ الملك دليوان إلى أعمال السخرة .

حينَ وصلَ الشابُ الغريبُ إلى قُرْبِ الرجلِ العجوز سمعَه يقول : « الآن يأتيكَ الزبانيةُ أيها الشابُ الغريب » .. ثم سعَلَ .

فسأله الشاب : ماذا يعني زَبانِيَة ؟ (سوف نلاحظُ خلالَ أحداثِ هذه القصة أن هذا الشابَ يجهلُ الكثيرَ من العبارات التي يستعملُها أبناء المُدُنِ ورجالُ البَلاطِ منهم بشكل خاص !)

أجابه الرجلُ العجوز الجالسُ تحت شجرةِ التوت : الآن تراهم بعينِك .

وبالفعل فقد دخلَ السوقَ ، في تلك اللحظة ، حوالي مائةُ طفلٍ أو أكثر ، يحيطُ بهم عددٌ من الرجالِ ذوي الأشكال البشعة . وفي يدِ كلٍ منهم سَوْطٌ يُخيفُ به الأطفالَ المَسوقينَ كما يُساقُ قطيعُ

